مقارنة بين

الشعر الصهيوني والشعر الفلسطيني

في الأرض المحتلة

بقلم:

يوسف غاله

تُعدُّ القضية الفلسطينية من اكبر القضايا وأكثرها تعقيداً في العصر الحديث. ويعود السبب في ذلك بالدرجة الأولى الى طبيعة الصهيونية وأهدافها، ومخططاتها، وأساليبها.

فالقضية ليست محصورة بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة بل هي بين الأمة العربية بكاملها من جهة، وبين الصهيونية العالمية مدعومة من القوى الامبريالية من جهة اخرى.

لقد كُتب الكثير عن هذه القضية، وعن الصراع العربي الصهيوني، ومازال يكتب. وفي اعتقادي فإنه ما من قضية في التاريخ المعاصر خطيت بهذا الكم الهائل من المؤلفات والكتابات كهذه القضية.

وفي هذا البحث سنسلط الضوء على موضوع الشعر في القضية الفلسطينية. ذلك أن الشعر الصهيوني يكاد لا يكون معروفاً في الأوساط العربية. نظراً لعدم وجود المطبوعات الصهيونية في البلدان العربية من جهة، وقلة عدد الملمين باللغة العبرية من جهة ثانية.

وقد رأيت أنه من المفيد البحث في هذا الموضوع. حيث سيوضح مدى ارتباط الشعر الصهيوني بأهداف الحركة الصهيونية. وسيكشف طبيعة وأفكار الشاعر الصهيوني.

ورأيت أنه من المفيد أيضاً عقد المقارنة بين الشعر الصهيوني والشعر العربي الفلسطيني في الارض المحتلة. كشفاً لزيف الدعاية الصهيونية، التي تصور العرب بأنهم معتدون، وإرهابيون وهمجيون، يريدون القاء الاسرائيليين المتحضرين في البحر. وحقيقة الامر ان العكس هو الصحيح. وهذا ما سيتضح لنا من خلال عرض نماذج من الشعر الصهيوني. ومقارنتها بشعر شعراء الارض المحتلة. اعتماداً على مقولة: أن الشعر مرآة تعكس الأفكار والمشاعر والأحاسيس.. الخ.

«من اللازم أن نشير ابتداءً، الى

حقيقة لا ينبغي ان تفوتنا، وهي ان قطاعاً كبيراً من الأدب في اسرائيل خاضع للتوجيه»[1] «فهناك تدخل في حرية التعبير الادبي الاسرائيلي اذا جنح الى مخالفة جوهر أهداف السلطة الاسرائيلية. هذا على عكس ما هو شائع عن حرية التعبير المطلقة في اسرائيل. وهو امر يمثل الجانب العنيف من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدباء الاسرائيليين ـ بالإغراءات والضغوط ـ من أجل الدعوة الى مفاهيم السياسة الاسرائيلية، ومرتكزات الفكر الصهيوني العامة»[2]

فالصهيونية كما هو معروف، تستند في اغتصابها للارض العربية على خرافة دينية، وضعها حاخامات اليهود. مفادها: أن الربَّ وعد بني اسرائيل على لسان يوشع بهذه الارض. وانهم بالمعاناة وبالآلام سيحققون وعد الربِّ هذا.

وهكذا فإننا نجد الشاعر الصهيوني (يعقوف ريمون) في قصيدته «الى متى»[3] يعزف على وتر هذه الخرافة ويسأل الربَّ سؤال العاتب عن زمن تحقيق هذا الوعد:

ربَّاه
من نوافذكَ.. تشهد
آلام الخلاص..
كثيفةً.. مكثفةً..
ونحن
بين مرور معجزة وأختها
نحصي موتانا.. وقلوبنا
تسأل..
الى متى؟.. الى متى؟
يظل يومنا المأمول
على دمانا
يسير؟

إن العالم كله يدرك سخف هذه المقولة، وخرافية هذه الخرافة. فالربُّ ليس ربُّ بني اسرائيل وحدهم. بل هو ربُّ البشرية جمعاء. وهو الحق والعدل والخير. وليس كما يصوره الصهاينة ملبياً لأهدافهم وأطماعهم الشريرة.

ويحاول الشاعر الفلسطيني سميح القاسم الرد على هذه الخرافة. موضحاً ان الاتكاء عليها لن يفيد الصهاينة في شيء. يقول في قصيدته «بهوشع مات». ويقصد بيهوشع هنا يوشع:

يهوشع مات
فلا تستوقفوا الشمس، ولا تستمهلوا الغروب
سور أريحا شامخ في وجهكم الى الأبد[4]

يا ويلكم! يا ويلكم!
سرعان ما تغوص في أعماقكم
أظافر الغروب
يهوشع راح.. ولن يؤوب
يهوشع مات.

وتعتمد الصهيونية اعتماداً تاماً على تزييف التاريخ، وقلب الحقائق. وتصوير ان العرب هم المسؤولون عن مأساة اليهود الجديدة ـ كما يسمونها ـ ولذلك فإن الشاعر الصهيوني «يصحف بولاق» يدعو الاسرائيليين الى نبذ فكرة المسالمة. كما يدعوهم الى اتباع سياسة القتل والتدمير من أجل الخلاص من المأساة كما يدّعي. ويربط الماضي بالحاضر بطريقة مزيفة. يقول:[5]

سداد الحسابات في ظنّي
فيما بين النهرين.. بدأ
هناك ألقى ربُّ ابراهيم
المهزوم..
الى نيران الأتون..
ومنذ دمرت أوثان
عامورة وسادوم
وأبناؤه باطراد
تحت شعار «لا تقتل»
يُقتلون..
....
ليحيا نبذ السلبية
كلماتي..
لتكن كلماتي فيالق
أشواك..
لتسقط أركان عالم
منحطٍ .. بزئير جبار
....
لكن الشاعر الفلسطيني يتحدى

أساليب القتل والتدمير، التي يعتمدها الصهاينة ويدعون اليها. معتمداً على حقائق التاريخ. وتصميم الشعب العربي الفلسطيني على الدفاع عن حقه ووطنه. يقول الشاعر الفلسطيني توفيق زياد في قصيدته «ثلج على المناطق المحتلة»:

أيُ شيء
يقتل الأصرار
في شعب مكافح؟!
أيُ حرب
قدرت يوماً، على
سرقة أوطان الشعوب؟!
وطني ـ مهما نسوا ـ
مرَّ عليه
ألف فاتح
ثم ذابوا
مثلما الثلج يذوب.

انها الحقيقة التاريخية التي لا شكَّ فيها، وهي ان فلسطين وطن العرب الفلسطينيين منذ فجر التاريخ. ولا ارتباط للصهاينة بها الا كارتباط الغزاة الرومان او الصليبيين او العثمانيين.. الخ.

ولذلك فإن حديث الشعراء الصهاينة عن فلسطين يختلف تماماً عن حديث الشعراء الفلسطينيين. يقول الشاعر الصهيوني «يهوذا عميحاي»

هذا وطني
الذي يمكنني فيه أن أحلم دون أن أسقط
وأن أرتكب أعمالاً سيئة دون أن أضيع
وأن أهمل امرأتي دون أن أصبح معزولاً
وأن أبكي دون خجل
وأن أخون وأكذب
دون أن أتعرض للهلاك

ليس هناك من تاريخ، ولا جذور، ولا ذكريات للشاعر الصهيوني في هذا الوطن ـ فلسطين ـ إنه يريده وطناً لممارسة الأعمال القذرة، من خيانة وقتل وكذب وغير ذلك من الأعمال التي اتصف بها الصهاينة عبر تاريخهم.

أما فلسطين الوطن التاريخي المستمر للفلسطينيين، فمختلف في نظر الشاعر الفلسطيني. إن هذا الوطن عنده هو ذاته، هو الماضي والحاضر والمستقبل. ولذلك فهو يصوره جميلاً مشرقاً. ومهما ابتعد عنه، فإن علاقته به تزداد عمقاً. ويتحول حبه له الى وجد صوفي. يقول الشاعر محمود درويش مخاطباً الشاعرة فدوى طوقان:

هذه الأرض التي تمتصُّ جلد الشهداء
تعد الشمس بقمح وكواكب
فاعبديها
نحن في أحشائها ملح وماء
وعلى أحضانها جرح يحارب
....
آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبه
وأنا لست مسافر
إنني العاشق والأرض الحبيبة
....

واذا كانت غاية الشاعر الصهيوني من وجوده في فلسطين، هي ممارسة الاعمال القذرة. وتلويث هذه الارض المقدسة بهذه الاعمال. فإن الشاعر توفيق زياد يتحدث في قصيدته «أغنية زفاف» عن الأعمال التي سيقوم بها في فلسطين بعد التحرير والعودة. ونرى أن هذه الاعمال تنصبُّ على تحويل الأرض الفلسطينية الى جنَّاتٍ وورود وأزهار. يقول:

حبيبة قلبي.. رويداً
فعماً قريب
تدور الرياح تدور
ويخفق في كل أفقٍ
جناح لهيب
وسوف نعود
أنا .. أنت .. نطوي الحدود
ونمشي
على كل تلك الدروب
ونحيي جميع عروق الدوالي
ونبعث جناتنا من جديد
ونقطف أزهى وأحلى الورود
لنصنع منها
فراش هوانا السعيد

هذا هو الفرق بين الشاعر الفلسطيني والشاعر الصهيوني.

إن تراب فلسطين جزء من ذات الشاعر الفلسطيني. والشاعر الفلسطيني منغرس في حبات تراب وطنه. ولذلك فإن محمود درويش يعبر عن التلاحم بين الشاعر والارض بقوله: «أنا الأرض»

لأن الوطن في نظر الشاعر الفلسطيني هو الكرامة والتاريخ والذكريات والعواطف والأحاسيس والمشاعر.. الخ التي لا يمكن تقييدها بالكلمات. أما الوطن ـ فلسطين ـ عند الشاعر الصهيوني فليس شيئاً من هذا القبيل. لعدم وجود الارتباط بينهما. كما رأينا في قصيدة «عميحاي» السابقة.

ويتكىء الشاعر الصهيوني دائماً على الخرافة والاسطورة التاريخية من أجل ايجاد ارتباط بين الصهيونية وفلسطين. ففي المقطع التالي من قصيدة «الملك شاؤول وأنا» ينبش الشاعر الصهيوني يهوذا عميحاي من قبور خرافة التاريخ شخصية اسطورية يهودية هي الملك شاؤول ليتخذها حافزاً من أجل مجيء بطل يعيد المجد الذي بناه شاؤول المزعوم:

كما البوصلة
سيأتي به رأسه دائماً شمال مستقبله المؤكد
لقد أصبح قلبي مثل ساعة منبهة
ليتهيأ لاستلام سلطته
وكلما نام أحدهم سيصرخ
حتى تبحّ أصوات كل الطرائد
ولن يوقفه أحد
....

أما الشعب الفلسطيني فوجوده التاريخي مستمر لا انقطاع فيه منذ آلاف السنين. رغم موجات الغزاة المتعددة. والتي لم تستطع ان تؤثر على هذا الوجود. ولذلك فإن الشاعر سميح القاسم يؤكد أن نضال العرب ضد الصهاينة هو استمرار لنضالهم ضد كل الغزاة السابقين. وحقهم واضح وثابت لا يحتاج الى تأكيد:

دم أسلافي القدامى لم يزل يقطر مني
وصهيل الخيل مازال، ، وتقريع السيوف
وأنا أحمل شمساً في يميني وأطوف
في مغاليق الدجى.. جرحاً يغنيٍّ!!

ويعبر الشاعر توفيق زياد عن عمق الارتباط التاريخي بين الفلسطينيين والارض الفلسطينية بقوله:

هنا لنا ماضٍ وحاضر ومستقبل
كأننا عشرونَ مستحيل
في اللد والرملة والجليل
يا جذرنا الحيُّ تشبّث
واضربي في القاع يا أصول
....
جذري عميق
هل يضير الجذر تقطيع الأصول
....

إن الصهيونية تعمل على تسخير العالم لخدمة اهدافها ومصالحها. بكل الوسائل والسبل المشروعة وغير المشروعة. فبروتوكولات حكماء صهيون، وهي دليل الصهاينة في أعمالهم، تؤكد على ضرورة العمل من أجل جعل دول العالم مسخرة لخدمة المآرب الصهيونية.

يقول يهوذا عميحاي:

إنّي أشهد رئيس الولايات المتحدة
على أنه أبي
وأشهد رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي
على أنه راعٍ يحمي أملاكي
وأشهد الوزارة البريطانية
على أنها أسرتي
وأشهد ماوتسي تونغ
على أنه جدي
كلهم ملزمون بمساعدتي
....

لكن الفلسطينيين يعتمدون على تأييد الشعوب المحبة للسلام والعدل والمؤيدة للحق الفلسطيني. وليس على الأنظمة الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية. يقول الشاعر توفيق زياد:

قل لامريكا: غراب الرقّ

يا بؤرة حِقد
لحمنا مرٌ علَى الأنياب
من زرق وصفرِ
....
يا نداماي فغذُّوا
سيركم أثمر صبري
بالأضاحي نفرشٍ الدرب
الى الفجر الأغرّ
فلنا في كل أرض
أخوة.. أفراخ نسرِ

ولأن الوجود الصهيوني في فلسطين، هو وجود استعماري استيطاني، لا يقوم على أيِ أساس شرعي. فإنها هزيمة الصهاينة في حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣. وما عانوه في حرب ١٩٨٢ على الارض اللبنانية. هذه الهزيمة صبغت حياتهم وتفكيرهم بالسوداوية، والتشاؤم والرعب وهزتهم من أعماقهم. ففي المقطع التالي من قصيدة للشاعر الصهيوني «مانجر» نلمس التشاؤم والاغتراب بعد حرب تشرين:

لم تُفتح البوابة لأخي
يوم الغفران
بل راحت تقفل
راحت تقفل ماضيه
على محاورها الثقيلة
وأنا أجاهد لوقف حركة الحديد
وهي تطبق على اخي من كل صوب
....

لقد وجهت المقاومة اللبنانية، مدعومة من الجيش العربي السوري ضربات موجعة للجيش الاسرائيلي اثناء غزوه لبنان عام ١٩٨٢. لكن الإعلام الصهيوني كعادته دائماً، لم يكن يذكر خسائر جيشه. بل كان يؤكد ان الجيش الاسرائيلي يسير من نصر الى نصر.

الامر الذي جعل الشاعر الصهيوني (روبيك روزنتال) يفقد صبره نتيجة كذب إعلام دولته. ويتحدث عن الخسائر الصهيونية بصورة تشاؤمية واضحة. يقول:[٦]

أعيدوا هذه الأوسمة
كل الأوسمة
لمن بعث اليكم بها
فالذين بعثوا الأوسمة للجنود
هم الذين أرسلوا الجنود للحرب
أعيدوا لهم الأوسمة
أوسمة العار والأكاذيب الكبيرة
كل الأوسمة يجب ان توضع
في طرود تحمل الضحايا الذين سقطوا
هناك في الشقيف
في الدامور
في صور
في عين الحلوة
أعيدوا لهم الأوسمة
أوسمة الخزي والعار
....

وعلى العكس من ذلك فإن الشاعر الفلسطيني الذي يدرك أن جذوره ثابتة في أعماق هذه الارض، يؤمن إيماناً راسخاً ان خسارة معركة او الهزيمة فيها، انما هي حافز للشعب العربي لإعداد العدّة من أجل معركة النصر القادمة. فنكسة حزيران عام ١٩٦٧ رغم مرارتها، لم تفقد ثقة الشاعر الفلسطيني بشعبه، ولم تزعزع إيمانه بحقه الثابت. بل زادته ثقة وإيماناً بالنصر. يقول الشاعر توفيق زياد:

من هنا مرُّوا الى الشرق غماماً أسودا
من هنا سوفَ يعودون وإن طال المدى
وعلى أرضيَ هذي لم يعمِّر فاتحون
....
كبوة هذي وكم
يحدث أن يكبوا الهُمام
إنها للخلف كانت .. خطوةً
من أجل عشر للأمام
....

وعلى نفس المنوال يسير الشاعر سميح القاسم في قصيدته «أكثر من معركة»:

رغم الشكّ.. ورغم الأحزان
أسمع.. أسمِع.. وقع خطى الفجر
رغم الشكّ.. ورغم الأحزان
لن أعدم إيماني

في أن الشمس ستشرق
شمس الإنسان
ناشرة الوية النصر.
....
إن عنصرية الصهاينة وحقدهم على العرب، لم يعد خافياً على أحد. فتاريخهم مليء بالشواهد على ذلك . والمجازر التي ارتكبوها في كفر قاسم ودير ياسين والمسجد الاقصى والخليل وقانا وغيرها أكبر دليل على تجردهم من الانسانية. والشاعرة الصهيونية «نيللي ساخس» في المقطع التالي ترفع شعار القتل وسفك الدماء والوعيد والتهديد:

«في حملة سلامة الجليل
سنسفك الدماء الكثيرة
ونقتل الاطفال والنساء
والشيوخ»

وبنفس الروح الخالية من أي شعور إنساني يخاطب الشاعر الصهويني «افريم سيدوم» نساء الارض المحتلة:(٧)

كل النساء في صيدا وصور
كل الامهات.. وكل الحوامل
كل المسنين.. وكل الأرامل
ها نحن قادمون لنعاقبكم
لنقتص منكم
....

وبمقابل هذه الهمجية، وهذا الحقد الصهيوني.. تتجلى إنسانية الشاعر الفلسطيني، على الرغم مما يتعرض له شعبه من إبادة وما يتعرض له وطنه من تدمير. يقول توفيق زياد في قصيدته «كلمات عن العدوان»:

إننا للمرة الألف نقول:
نحن لا نذبح أطفالاً، ولا نصرع ناساً آمنين
نحن لا ننهب بيتاً، أو جني حقلٍ،
ولا نطفي عيون.
نحن لا نسرق آثاراً قديمه
نحن لا نعرف ما طعم الجريمة
نحن لا نحرق أسفاراً، ولا نكسر أقلاماً
ولا نبتزُّ ضعف الآخرين
....

إن الصراع العربي الصهيوني هو صراع وجود لا صراع حدود. هذه هي الحقيقة. فالصهاينة لا يريدون عربياً واحدا على أرض فلسطين ويسمون العرب بالخونة. يقول الشاعر الصهيوني «يونثان غيفن»(٨)

اطردوا كل الخونة
من البلاد اليهودية
لا نريد هنا
الا كل صهيوني حقيقي
يصرخ امام الملأ
يهوذا والسامرة لنا
وأنتم سكان يهوذا والسامرة اجلسوا
اجلسوا بصمت .. بهدوء
وقولوا: شكراً
لأنكم لم ترحلوا بعد
الى ما وراء البحار
....

لكن توفيق زياد يتحدى باسم الفلسطينيين الارادة الصهيونية في قصيدته «هنا باقون»:

إنّا هنا باقون
فلتشربوا البحرا
نحرس ظل التين والزيتون
ونزرع الأفكار كالخمير في العجين
ونأكل التراب ولا نرحل
هنا لنا ماض وحاضر ومستقبل
....

تقوم الإيديولوجية الصهيونية على العدوانية، والعنصرية، والتوسعية، والهمجية.. الخ. وينصب حقدها بالدرجة الاولى على العرب. ومن يقف معهم من الشعوب والحكومات. ويعمل الاعلام الصهيوني بمساعدة المؤسسات الإعلامية الامبريالية، على قلب الحقائق. فيصور العرب ارهابيين، معتدين، همجيين. ويصور اسرائيل دولة حضارة وتقدم وحرية. ولكن لنرى كيف تربي هذه الدولة الحضارية أطفالها. وكيف تنشئهم على فكرة العدوان والحرب. فهي تزرع فكرة

الحرب في نفوس الصغار، حتى تصبح جزءاً من تفكيرهم، وهدفا لهم. والحرب هنا حرب مستمرة. حرب تليها حرب. وهكذا. يقول الشاعر الصهيوني «يعقوب باسار»:

«الحرب المقبلة.. ننشئها.. نربيها
ما بين حجرات النوم.. وحجرات الأولاد
النعاس آخذ في الاصطباغ بالسواد
زهرات الحديد للحرب المقبلة
ما بين حجرات النوم.. وحجرات الاولاد»

إن الحرب المقبلة هي ك حرب ستأتي. أو يهيئون لها.

وبروح مليئة بالعنصرية والحقد على العرب والإنسانية تتحدث الشاعرة الصهيونية (نعمي شيمر) عن الحرب الأهلية في لبنان. مع الاشارة الى ان اسرائيل هي التي افتعلت هذه الحرب. تقول:(٩)

«ماذا علينا
ليذبحوا بعضهم
ليذبح أحدهم أخاه
هذا ما قاله الجنرال (روفائيل إيتان)
وهو يتحدث عن الحرب العراقية الايرانية
لقد قالها بيغن ذات يوم.
كلاباً تقتل كلاباً
فلماذا نتدخل نحن؟
ولماذا لا نكون سعداء؟
العرب سينطلون هم العرب».

...

إن حضارة الصهاينة هي حضارة القتل والتدمير وسفك الدماء. فمن المعروف ان كل قوانين العالم تنص على عدم قتل الاسير، بل معاملته معاملة حسنة. ولكن اسرائيل لاتتقيد بأيٍ قانون عالمي. نرى ماذا تفعل بالاسرى العرب. على لسان الشاعر الصهويني (يونثان غيفن)(١٠)

هناك في مقهى بكريات شمونه
كان جمهور غفير يجلس أمام الشاشة الصغيرة
عن الاسرى الفلسطينيين
صرخ الجمهور، وصرخت أنا أيضاً
ابتهاجاً بالحشد الجميل
حيث الارهابيون الفلسطينيين
في طريقهم الى المعتقل
اقتلوهم. صرخ احدهم
صرخنا جميعاً
احصدوهم.. اذبحوهم.. اقتلوهم
شاهدت دماءً كثيرة
فارتاحت نفسي.

....

أو لم يرعو أولئك الذين لا زالوا يصدقون أكذوبة السلام الاسرائيلية أي سلام يرجى من الذين تشربوا بأفكار العدوان والحقد والعنصرية، ومعاداة الإنسانية؟!

هوامش:

١ ـ أضواء على الادب الصهيوني المعاصر. تاليف: ابراهيم البحراوي ص١٠
٢ ـ المصدر السابق ص٢٢
٣ ـ صحيفة هاتسوفيه ١٩٦٩/٧/٤ ـ الملحق الادبي
٤ ـ اريحا: رمز الشؤم اليهودي. فقد دارت امام اسوارها اشرس المعارك بين سكانها الكنعانيين والغزاة العبرانيين. وتقول الاسطورة اليهودية: إ الربٌ نهى بني اسرائيل عن دخول أريحا. ولهذا أعطت اسرائيل أريحا لياسر عرفات في اتفاق اوسلوا. ـ الكاتب ـ
٥ ـ الملحق الادبي لصحيفة معاريف ١٩٦٩/١٠/١٠.
٦ ـ صحيفة عل همشمار. ترجمة على بدران ١٩٨٣/٣/٣١ عن الرأي الاردنية.
٧ ـ ملحق معاريف الاسرائيلية. عن الرأي الاردنية بتاريخ ١٩٨٢/٦/١٥
٨ ـ ملحق بديعوت أحرنوت، ترجمة خليل السواحري. بتاريخ ٢٢/١٠/ ١٩٨٢
٩ ـ ملحق معاريف الاسرائيلية ١٩٨٢/٩/٢٣
١٠ ـ ملحق بديعوت احرنوت. ترجمة خليل السواهري ١٩٨٢/١٠/٢٢

فاضل السباعي

من روايته (الطبل)
إلى حكايته (بدر الزمان)

بقلم:
وديع ملحم العريضي

الاديب العربي الكبير «فاضل السباعي» يتنقل بنا مجدداً في «سلسلة أعماله المتكاملة» ليشلحنا الى معابر الاندهاش، حين نتطلّع الى مؤلفاته الصادرة عن دار «اشبيلية للدراسات والنشر» للعام ١٩٩٢ لنقرأ له الكتب التالية:

- الطبل . رواية. طبعة اولى ١٤٦ صفحة. حجم وسط.
- بدر الزمان . حكاية للصغار والكبار . طبعة اولى. ١٥٢ صفحة . حجم وسط.
- الشوق واللقاء. قصص . طبعة ثانية . ١٦٠ صفحة. حجم وسط
- حياة جديدة. قصص. طبعة ثالثة. ١٦٠. صفحة. حجم وسط

جميع هذه الاعمال صدرت بطباعة أنيقة، واخراج فني مميّز باشراف الفنان «فراس السباعي» حيناً، ولوحات تزيينية للفنانة «ريما بطرس» مرّة اخرى.. وغلاف فني للفنان «غسان السباعي» دائماً.. ممّا اضاف الى اعماله المتناهية في الابداع الادبي المسؤول والهادف .. جمالية لا تُحد في الاخراج الفنّي، واللوحات التعبيرية!..

في هذه المقالة القصيرة ، عزمت ان اعرج قليلاً الى عملية الجديدين «الطبل» و«بدر الزمان» لنرى الملامح المستجدة لأدب السباعي من خلالهما..

مما لا شك فيه، أن المؤلف عودنا على تنويع اعماله الابداعية منذ بدأ يمارس هذا الفن في العام ١٩٥٠ لنشهد تقلّب مذاهبه الفنيّة في القصة والرواية، ما بين الواقعية، والرومانسية، الى الخيالي المجنّح.. ليطرق من خلالها المواضيع الاجتماعية، والشعبية، والتربوية.. مثيراً الحسّ القومي.. والوطني.. والانساني.. وهو يطرح نقده الاجتماعي باسلوب ساخر ممتزج بالمرح مرّة، ليعرّج بك الى أشواك المرارة القاهرة مرّة اخرى..

اما روايتيه «الطبل» و«بدر الزمان» فقد امتازتا بالسخرية الحارّة.. متناولاً الرمزية تارة، والحكاية الاسطورية تارة اخرى، مستعيراً من «كليلة ودمنة» لسان حيواناتها.. متنقلاً الى ملامح «الف ليلة

وليلة» ممتعضاً لنزق «شهريارها» المتمثل في حكايته «بدر الزمان» بالامبراطور «يان ـ تسون».

كل ذلك بحبكة فنيّة جميلة طرّزها بعروق تطور العصر.. حين حرّك لنا الطائرة مستعيضاً عن «بساط الريح» والسيارة الفارهة، بدلاً من «الحصان الأبجر»..

لكنك، لا تنفك تستشعر مواطن المرارة، والقسوة التي يتخبط بها جيل خاتمة القرن العشرين في غابات العالم الثالث، حيث يحتمي انساننا المتألم لانتهاك حقوقه بوحوشها وضواريها من همجية القيّمين على مصيره في غابة الانسان البدائي، بذهنتة المتخلفة بما يفوق في بطشه، وافتراسه شراسة وحوش البراري!..

كم تطنّ اسماعنا، وتشلّ عقولنا يومياً، طرقات طبول ذلك العالم عامة، وعالمنا العربي خاصة.. لندهش أمام ذلك الكمّ الهائل من الانتفاخ المعطّل لحركة الحسّ، وتفاعلات العقل..

فهل تضلّ «قرقعتنا» المدوية صدى الزمن المنصرم، نضجّ بها عقول الاجيال الطالعة دون الاستفادة بحقول التطور المنبعثة بتمازج انصهار الحقيقة بشبكة الارقام المحددة لناتج المعرفة.. وتحسّس آفاق المستقبل من خلالها؟..

أم نشهد الفاعل المتطور مع حركة الزمن يدك قاعدة الطبول.. ليشلحنا عبر سرعة فلكية لقفزات متحلقة بتجدّد الآخرين؟!.

اعتقد، انها العبرة التي اراد الكاتب ان يلفتنا اليها في المغزى الباطني لحبكة روايته الساخرة «الطبل»!

اذاكان فاضل السباعي عبّر عن تفاؤله في روايته «الطبل» التي تمحورت أهم موضوعاتها حول الفساد الاداري.. «فعثمان العطار» المحقق الاداري وضابط الدوام في ادارة رسمية، استغل وظيفته ليمارس عملية تسلط على جميع المديرين والموظفين في ادارته ليخفي بذلك عقدة نقص ربي عليها.. هذا الموظف المسؤول استغل شجار موظفتين جديدتين على زهرة ورد قدمها احد الزملاء وحسبت كلتيهما انها تخصها..

تناول السباعي هذا الرمز.. وعالج باسلوب ساخر مجريات احداثه، ليدلنا على مدى تعطل الادارة امام تسلط موظفين مدسوسين بمهمات استثنائية.. وكيف امتد التحقيق وتشعب ليتناول معظم موظفي تلك الادارة، الى ان بلغ في جديته سمع «معالي الوزير».

كل ذلك، و«العطار» يتبختر بتسلطه وسلطويته دون ان يستجيب لتوسل متوسل كي يرحم الادارة التي تعطلت اعمالها الجوهرية، لسبب استدعائه اليومي لموظفيها ليتوسع في تحقيق تافه، يدلون بشهادتهم حتى استهلك تحقيقه مئات الصفحات الكبيرة اضافة الى شلل الاعمال الادارية لعدة اسابيع.. ليجعل العطار من ذلك الحدث، وتشعباته التافهة قضيّة وصفها تقديره المتخلف بفضيحة العصر.. في حين يعبر في مضمونه على دلالة حضارية راقية في جوهر الحدث.. فيما لو تطلعنا الى ملامح المحبة المشعّة مع تبادل هدايا الورود..

وحين كان «العطار» يحلم بوسام ترفيع يستحقه لفعلته، جاء تفاؤل الاديب «فاضل السباعي» يستبدل وزير تلك الادارة بآخر جديد ـ في روايته ـ يتمتع بذهنية شباب عصري مثقف يعمل بروحية حماس ثوري.. ليستهل اعماله باقصاء «العطار» وامثاله من الادارة.. وبذلك أنقذها من براثن اصحاب الذهنيات المتخلفة.. ليحل محلها أكفاء بعقلية جديدة متحمسة للتطوير.. والتغيير!.

اذا كان تفاؤل المؤلف في روايته «الطبل» رمز اليه بوزير جديد شاب والحب مسؤوليته الى حد ما عصرنة التطور في الادارة؟..

فاننا نرى تفاؤله في حكايته «بدر الزمان» ينحى الى منحى آخر.. ليرى العلاج الثوري وحده ينقذ شعوب العالم الثالث المضطهد أمام تسلط سلاطينه!..

في هذه الحكاية، ينسج السباعي خيوط الواقع بفنيّة مبدعة يحبكها بثوب الاسطورة بجمالية متناهية في السرد البياني.. الى بهاء الصورة المنسجمة مع الحدث، مسهباً في الوصف بحس ممتع في قيادته للمتلقي، ليبلغ به ذروة الانفعال

العاطفي المتكامل في صيرورة الانطلاق الى الهدف.. حتى تحس انّ الاسطورة مهما تمادت في التضليل لمجريات زمن الانبعاث، وشكل مستجداته.. والاصابع الظاهرة، الخفيّة لتحريكه.. لا تنفك تقودنا بدلالتها، ومعمياتها، الى مجريات نتائج ماثلة.. أراد كاتب مبدع أن يدلنا اليها..

«فالامبراطوريانْ ـ تسونْ» في حكاية بدر الزمان لا تخلو مائدته من لحوم طائر اليمام المشوي كمقبلات يتقوى بها.. له متعة ساديّة لاصطياده ونتفه بيديه كما فعل احيانا، ومُسخراً قادته للقيام بتلك المهمة دائماً..

في حين عمّم اكل البيض لرعيّته عطفاً منه لما في البيض من فوائد جمّة.. أقبلَتْ الرعيّة على تربية مداجن الدجاج، لنجد «بدر الزمان» يتفنّن في توسيع مدجنته حالماً بمستقبل افضل..

لكنّ يانْ-تسون» الجشع يحتكر انتاج البيض لصالح مؤسساته .. يمنع على الرعية تداول هذه المادة الغذائية الا من خلالها .. يعمم على المزارعين الزامية تسويق انتاجهم الى مؤسساته بسعر بخس تحت طائلة العقوبة للمخالفين.. في حين تصل الى المستهلك باسعار مرتفعة عن طريق المؤسسة، حتى ضجّت السلطنة لموجة استفحال الغلاء.. علماً ان توفر المادة المرافق لتدني الطلب لسبب ارتفاع الاسعار جعلها عرضة للفساد، مع ذلك، سوّقت للمستهلك فاسدة دون ان يجرأ احد على الاعتراض.

وحين تجرأ «بدر الزمان» على الانتقاد .. جاء جند «يانْ-تسون» ليدمروا كوخه، ويخربوا مدجنته، ويصادروا دجاجته.. ثم سيق ليجلد في الساحة العامة، ويزج به في سجن الامبراطور المعتم.

تحوله جنيّة صديقة تطلع عليه مع كل اكتمال بدر الى «يمامة».. يتمكن من الطيران برفقتها هارباً من سجنه الى ملجأ اليمام، بعد نزوحه الى الغابات البعيدة عن متناول اسلحة الامبراطور وقادته هرباً من جوره..

يتزوج ذكر اليمام المسحور «بدر الزمان» بيمامة فُتن بها تدعى «بدور» تلحّ «بدور» لترافق زوجها الى مدينته في رحلة طيران ليلية تجنباً لأسلحة جند الامبراطور المتشوق الى وليمة يمام.. وتكريماً من اليمامة «بدور» لبلاد زوجها تبيض بيضة على نافذة كوخٍ لفقير تتحول الى قنبلة يدوية.. يفرح بدر الزمان لهذا الحدث.. يخطط لانقاذ موطنه من ظلم الامبراطور كما وعدته «الجنيّة» بذلك.

يتكاثر سفر اسراب اليمام الليلي الى مدن وقرى السلطنة لتبيض باستمرار داخل شبابيك الفقراء!..

يستمر المؤلف في نسج حكاية «بدر الزمان» باسلوب يجمع بين الخيال الاسطوري، والواقع المتردي لصور الظلم برمزية ظاهرة.. لنشهد ، كيف يحوّل ـ في ذروة انفعاله الثوري ـ بيوض اليمام بعد اقتناص اليمامة «بدور» الى قنابل يدوية تستقر في شبابيك اكواخ الفقراء، يتسحلون بها ساعة الحسم.. و«بدر الزمان» المسحور الى ذكر يمام تحدث له معجزة اسطورية تجعله يبيض بيضة تتحول الى قذيفة صاروخية يدكّ بها ـ منقضاً ـ موكب الامبراطور «يانْ-تسون» لتقضي عليه مع كبار اعوانه..

يعم بعدها العدل بلاد «الامبراطورية» حين يستلم الفقراء السلطة فيها.. ليخلّدوا الشهيد «بدر الزمان» بتمثال كبير يتوسط ساحة العاصمة، والى جواره ارتفع نصب اخر ليمامة باسطة الجناحين!..

لن أسهب في الشرح مفنداً أدب السباعي، لكنني سأختم مقالتي بشهادة للاديب العربي المصري الكبير «حسني سيد لبيب» حيث يقول:

(«فاضل السباعي» كاتب ساخر في زمن بخيل يصعب فيه على الانسان ان يرسم ابتسامة حقيقية على وجهه..

انه يراهن على زرع الابتسام برغم مافي حياتنا من المرارة والآلام.. يزرعه ممزوجاً برؤية انتقادية للمجتمع، حرص على ابرازها في صورة ساخرة، لكنها السخرية الهادئة الهادفة.

وهو بذلك ، ينضم الى ظرفاء العصر ـ وما أقلهم! ـ ويذكرنا بمارك توين، وجورج برناردشو، وابراهيم عبد القادر المازني، وغيرهم..).

الأم العطاء

د. أمين أبو عبيد

خالدة ذكراها في الارض، تلك التي استحقت بمناقبها السماء، باقية في الارض جذوراً وفروعاً، تاريخاً وسيرة، تلك التي تربت على اكناف التلال الشهب ، حيث منازل عائلتها العتيدة، العربية الجذور، الصادقة الولاء، آل عبيد..

باقية في البصيرة تلك التي أبصرت النور في أواخر الربع الأول من هذا القرن، وترعرعت في ظل عماد أرفع بيت: ظل الإيمان والفضيلة والزخلاق، البيت الذي كان مقيلاً للثوار، ومرجعاً لحاجاتهم، وملجأ لهم، حيث لا يزال صدى تكبيرهم وتهليلهم ودوي رصاصهم في عب تلك الربى، وفي أذني فتاتها هيأ وعلى مدى قوسين أو أدنى، وحيث لا يزال الثائر الأول الشيخ صالح العلي يملأ الأماسي حكايا، فخر هذه الجبال والنجود العربية، صالح العلي الذي استمد دماء خؤولته من نبع عائلتها المطهر، صالح العلي الذي راسله عظيما هذا القرن أتاتورك الأتراك، وغاندي الهند، يشيدان باليد التي أطلقت أول رصاصة على المستعمر في غرب اسيا.

كثيرة هي المحطات الفنية التي خلفتها راحلتنا الكريمة في أذهان من يعرفها، وكثيرة هي اللحظات المضيئة التي خلفتها راحتلنا الكريمة في أذهان من يعرفها، وكثيرة هي اللحظات المضيئة التي رسمتها في أجفان عارفيها وزائريها ومحدثيها، ولكن اللحظة الاغنى بالنسبة لي والتي حفرت مسارها عميقاً في خاطري، هي تلك اللحظة الاخيرة التي زرنا بيتها «مع زوجتي وصديقي وزوجته» زيارة عادية ككل الزيارات «قبل وفاتها بأيام فقط»، ولكنها كانت اكثر من عادية في حفاوتها وترحيبها وضيافتها، فكأنها أرادت لهذه اللحظات أن تكون مميزة، بترسيخ إضاءاتها، وها إني وفاء لذكراها أسجلها حرفاً شجياً.

بورك البيت الذي أسس على لقاء فرعين كريمين، لعائلتين مميزتين: تقى وفضيلة ومناقب، أثمر ثماراً مميزة، بعضها حمل السيف مكان لواءه، وبعضها الحرف فكان إبادعه وضياءه، تحت ظل أبوة مناضلة حملت مشعل النور لتضيء ظلام القرون الوسطى، وتمزق أستار عتم آل عثمان، فكان من الرواد الاوائل الذين ألقوا جذوة الضوء في المقل العطشى إثر الانتداب، وبعد العقد الثالث من هذا القرن، وفي ظل أمومة حانية مؤمنة تدرك حجم رسالتها كزوجة وأم في مسؤولية التربية، وإنشاء بيت مؤمن بدينه وعروبته.

إن هذه الامكانيات الانسانية كأم وزوجة أدت كافة واجباتها الأرضية برضى وطمأنينة وحب، هي إنسانة مؤمنة تعبدت بإنسانيتها وعمرها بأداء واجباتها، وهذه هي العبادة الحقة، كما قال علامة هذا الجيل الشيخ سليمان الاحمد:

أنا في اعتقادي كل فعل الواجبات من العبادة.

ولعلني لا أبالغ، ولا أعدو الحقيقة، إذا ما قلت: إن يوم تشييعها بالافه المؤلفة التي جاءت من كل حدب وصوب، هو إعلان وإقرار وبيان بما لهذه الراحلة الفاضلة الكبيرة وعائلتها من مكانة في النفوس، وما لأياديها وحسها الإنساني الرفيع، وحبها للجميع من أثر حتى أننا لنكاد نلمح على شفاه الجميع مصداقية لقول المتنبي:

ولو كان النساء كمن فقدنا
لفضلت النساء على الرجال

لم تبتعد في رقدتها أم عبد الرزاق كثيراً، خرجت من مسجد لتدخل في مسجد آخر، خرجت من بيتها وبيت زوجها، بيت الفضيلة والتقى والتلاوة، والذي هو بمثابة مسجد غير معلن، لتدخل الى المسجد المعلن الذي أسسه زوجها المؤمن التقي، على البر والتقوى، وعلى مسافة خطوات معدودة من المنزل، لتستلقي في فناء هذا المسجد، وتتدثر بترابه، في رقدتها الاخيرة، رحمها الله.

في رحاب الأدب السعودي

اعداد:
تميم الحكيم

واصل (نادي مكة الثقافي الادبي) عام (١٤١٧)هـ عطاءه المتنوّع تحقيقاً لرسالته في خدمة الثقافة والفكر والأدب، وتفعيلاً لدوره في التواصل مع كافة الأدباء والمثقفين، من الشيوخ والواعدين.

*النشاط المنبري

ففي المجال المنبري بلغ عدد النشاطات التي قدّمها النادي عشرين نشاطاً.. كان من بينها أربع عشرة محاضرة، وثلاث أمسيات، وثلاث حوارات.

*المحاضرات

أما المحاضرات فقد غلب عليها المحاضرات الاسلامية والدينية حيث قدّم النادي محاضرتين لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مفتي عام المملكة، ورئيس هيئة كبار العلماء.. أولاهما عن (وجوب التمسّك بالكتاب والسنة ورد ما يتنازع فيه اليهما)، والثانية عن (وجوب الاستقامة)..

ومن خلال محاضرة للشيخ محمد بن صالح العتيمين، عضو هيئة كبار العلماء، أجاب سماحته عن سؤال: (كيف نحصّن شبابنا من الأفكار الوافدة؟ وكيف نغرس في نفوسهم عقيدة السلف الصالح؟)..

وكان لمعالي الدكتور محمد عبده يماني محاضرة استخلص فهيا الدروس والعبر من غزوة بدر الكبرى..

وحاضر الدكتور حسن الحجاجي عن (التربية الاسلامية بين الواقع والطموح)..

وشارك الاستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان في الموسم المنبري بمحاضر عن (بطاقات المعاملات المالية من منظور فقهي)..

بينما تحدّث فضيلة الدكتور مانع حماد الجهني في محاضرة له عن (الندوة العالمية للشباب الإسلامي ودورها في خدمة الشباب المسلم)..

وقدّم الدكتور مازن مطبقاني محاضر عن (الدراسات الاسلامية عن المستشرقين).. والدكتو أحمد عبده عوض عبده محاضرة عن (المضامين الحضارية

في الدين الاسلامي)..
ومن المحاضرات اللغوية والادبية التي قدمها النادي خلال موسمه الماضي محاضرة للدكتور أحمد خالد البدلي بعنوان (مصادر فارسية في الدراسات التاريخية الاسلامية).. ومحاضرة للدكتور عوض الجميعي عن (الشيخ مرعي بن محفوظ المقدسي وأثره في البلاغة والنقد).. ومحاضرة للدكتور سليمان العايد بعنوان (العلاقة بين اللغة المنطوقة والمكتوبة في الفصحى)..
وكان للدراسات التاريخية دور في محاضرات النادي حيث تابع جمهوره باهتمام محاضرتين قيمتين.. الاولى للمؤرخ الاثري الاستاذ الدكتور عبد الرحمن الانصاري بعنوان (آثار مكة المكرمة كما يعكسها كتاب أخبار مكي للأزرقي).. والثانية بعنوان (بين مكة المكرمة والمخلاف السليماني.. رحلة في الآفاق التاريخية) للدكتور أحمد بن عمر الزيلعي..

* **الحوارات والندوات**

أما حصيلة الحوارات والندوات في موسم النادي المنبري لعام ١٤١٧هـ فكانت ثلاث..
كان أهمها الحوار الهام الذي نظّمه النادي عن (أدب الطفل على ضوء التعاليم الاسلامية)، وشارك فيه: الدكتور سعيد عطية ابو عالي، والدكتور احمد المورعي، والدكتور عبد الله العطاس، والدكتور فؤاد سندي.. وتضمن الحوار محورين رئيسين: تربية الطفل وأدب الطفل..
وفي شهر واحد قدّم (نادي مكة الثقافي) ندوتين طبيتين.. كانت الاولى عن (الطرق الحديثة في وقاية وعلاج أمراض القلب).. شارك فيها عدد من الاستشاريين في امراض وجراحة القلب، من (مستشفى علوي تونسي وإخوانه)، و(مستشفى الملك فهد بجدة).. وهم: الدكتور مشعل غندور، والدكتور أحمد نابلسي، والدكتور محمد أنور عبد السلام، والدكتور عبد الحليم صيرفي.. وأدار الندوة الدكتور محمد طاهر كيالي.
وخلص المنتدون الى أهمية الوقاية في امراض القلب لأن علاج روماتيزم القلب يدور في دائرة مفرغة.. ودعوا الى الاقلاع عن التدخين، وعدم الاكثار من شرب الشاي والقهوة والمشروبات الغازية، والابتعاد عن الوجبات الدسمة والقلق النفسي والمؤثرات العصبية.. والاكثار من المشي والرياضة..
كما نظّم النادي ندوة حملت شعار يوم الصحة العالمي (الامراض المعدية المستجدة.. تأهب عالي ورد عالمي).. شارك فيها الاستاذ عمران الكاتب، مدير الشؤون الصحية بالعاصمة المقدسة، والدكتور محمد حسين الجفري، مدير عام الامراض الطفيلية والمعدية بوزارة الصحة، والدكتور سمير عوض الصبان، مدير مركز التدريب والتطوير بالعاصمة المقدسة.. وأدار الندوة الدكتور عبد الرزاق سلطان، وكيل (كلية الطب) بجامعة أم القرى..
وقد أكّد المشاركون على ارتباط المدنية والحضارة بالاهتمام بأمر الصحة والوعي الصحي، وعلى ضرورة الوقاية، وعلى أهمية تعاون جميع الدول وتضافر جهودها في القضاء على الامراض المعدية.

* **الأمسيات**

وكان نصيب الأمسيات كنصيب الحوارات والندوات، حيث نظّم النادي ثلاث أمسيات شعرية.. أولاها للأستاذ ابراهيم الشعبي، والثانية الأستاذ فاروق بنجر.. أما الثالثة فكانت أمسية للمواهب الواعدة شارك فيها أربعة من الشعراء الشباب هم : عادل بانا عمه، أحمد الصابطي، محمد البدري، يحيى العقيبي.

* **المسابقات**

وككل سنة نظّم النادي مسابقتين اولاهما ثقافية.. والثانية قرآنية برعاية صاحب السمو الملكي الامير سعود بن عبد المحسن، نائب امير منطقة مكة المكرمة، وشارك فيها أربعة عشر متسابقاً من طلاب تحفيظ القرآن الكريم.

* **الاصدارات**

صدر عن (نادي مكة الثقافي الادبي) خلال العام الماضي (١٤١٧)هـ خمسة كتب.. وهي:
١ ـ (عمود الشعر العربي.. النشأة والمفهوم).. للدكتور ومحمد بن مريسي

الحارثي.. وهذا الكتاب يتألّف من بابين يسبقهما مقدمة وتمهيد وتعقبهما خاتمة.. وكل باب يتكوّن من ثلاثة فصول حيث رصد المؤلف في أولها ظاهرة النشأة لعمود الشعر، أما الباب الثاني فقد خصه المؤلف لمفهوم ابواب عمود الشعر..

وقد بلغت عدد صفحات هذا الكتاب (٥٦٠) صفحة.

٢ ـ (الرّشاد في شرح الإرشاد).. وهو من تأليف السيد محمد بن السيدالشريف الجرجاني (من علماء العربية في القرن التاسع الهجري).. وقد حققه وعلق عليه الاستاذ منصور بن أحمد الغواز الغامدي.. ويقع في ٣٢٤ صفحة.. وهو من الكتب القيمة للمهتمين بعلوم العربية بوجه عام ودارسي النحو العربي على وجه خاص.. حيث يعتني الكتاب بتحقق كثير من الوجهات النحوية في صفحات قليلة.

٣ ـ (دراسات في الادب) للشيخ محمد بن أحمد العقيلي.. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المنتقيات الادبية في الشعر والنثر.. بدءاً بالعصر العربي القديم، وانتهاء بالعصر الحاضر عربياً وسعودياً.

ففيه نماذج من الخطب، ومختارات من الرسائل، وفيه الوصف، وفيه القصائد في مختلف الاغراض، لشعراء من الماضي والحاضر.. مع التركيز على قصائد لشعراء من موطن المؤلّف (جازان) ومنهم المؤلّف نفسه، والشاعر الراحل محمد بن علي السنوسي، والاستاذ حجاب الحازمي، والاستاذ احمد يحيى بهكلي، والاستاذ حسن حجاب الحازمي..

يقع الكتاب في (٢٦٢) صفحة، ويحمل رقم (١٠٠) من أصدارات النادي..

٤ ـ (الحرم المكي الشريف الجامع والجامعة)..

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان..

في هذا الكتاب تنويه بالقيمة العظيمة للحرم المكي الشريف في حياة المسلمين منذ دعوة ابراهيم عليه السلام أن يجعل هذا البلد آمناً، وأن يجعل أفئدة من الناس تهوي الى بيته الحرام.. حيث أصبحت مكة المكرمة مركزاً دينياً وعلمياً وحضارياً شعاره (اقرأ باسم ربك الذي خلق)..

ويركّز المؤلف في هذا الكتاب على النهضة العلمية والفقهية في (مكة المكرمة) في القرن الرابع عشر الهجري، حيث ساد البلد الأمين الأمن والرخاء، ومن ثم عمته النهضة العلمية القوية الشاملة، وأصبحت مركزاً علمياً ينبض بكل معاني النهوض والنشاط الفكري بما هياه المولى جل وعلا من علماء متخصصين من أبنائها، وبما أمدها به من العلماء الوافدين اليها من كافة الاقطار الاسلامية، حيث أصبحوا محور هذه النهضة العلمية ومصدر نشاطها، فتخرج عليهم آلاف الطلاب، فأمدت هذه البلاد والبلاد الاسلامية الاخرى، بالمدرسين والفقهاء والقضاة والمفتين..

يقع الكتاب في (١٤٦) صفحة تضم مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة..

٥ ـ (الأسس الفنية للتحقيق الصحافي)..

للدكتور غازي زين عوض الله..

يتناول المؤلّف في هذا الكتاب فن التحقيق الصحافي في مقدمة وخمسة فصول..

حيث يوضّح في الفصل الاول ماهية التحقيق الصحافي، وتعريفاته وعوامل ظهوره وانتشاره..

أما الفصل الثاني فيبيّن لنا أنواع التحقيق الصحافي.. ويليه الفصل الثالث الذي جاء بوظائف ومصادر التحقيق الصحافي.. بينما بيّن الفصل الرابع كيفية إعداد أساليب كتابة التحقيق الصحافي..، موضّحاً كيف يكتب وخطوات كتابته والقوالب الفنية لكتابته، وأساليب تحرير المقدمة والعنوان، والتحقيق الصحافي في المجلة..

يقع الكتاب في (١٦٤) صفحة، وقد اعتمد فيه المؤلّف على أكثر من عشرين مرجعاً عربياً وأجنبياً.

محب الدين الخطيب

مفكر

من الرعيل الأول

بقلم:

أحمد شوحان

عضو اتحاد الكتاب العرب

عضو جمعية البحوث والدراسات

عالم جليل، وعلم من كبار أعلام عصره، قضى حياته بين الكتب والدفاتر، وبين المخطوطات النادرة، والمطبوعات القيمة، باحثاً ومنقباً عن عيون التراث الاسلامي الخالد.

كان بيته مكتبة عامرة، وكان مديراً ومؤسساً للمكتبة السلفية في القاهرة، فكانت تعج بالامهات والموسوعات، وكان يشرف على طبع نفائس المخطوطات، وذخائر الكتب التراثية.

* مولده ونشأته

ولد الشيخ محب الدين بن أبي الفتح في مدينة دمشق في أواخر شهر تموز (١٣٠٣هـ-١٨٨٦م)[١] من أسرة عريقة في حسبها، أصيلة في نسبها، حيث يرجع الى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ينتسب للحسن بن علي، فهو هاشمي قرشي.

وكان أبوه وجده عالمين جليلين، أخذ في بداياته العلمية عنهما، وتأدب بآدابهما.

* دراسته وشيوخه

في دمشق الشام بدأ محب الدين الخطيب حياته العلمية، وأخذ عن أبيه وجده، ودرس في المدارس الابتدائية في دمشق، ثم ذهب الى بيروت لإتمام تعليمه فيها.

كان بدمشق قد شغف بالشيخ طاهر الجزائري رحمه الله، فقد أخذ عنه المعارف العقلية والنقلية، حتى أنه كان يقول عنه: (منه تعلمت عروبتي وإسلامي)[٢] وهذا ما دعاه لمدحه في قصيدة طويلة في مطلع شبابه ذكر فيها محاسن الشيخ طاهر ومزاياه الحسنة. وبعد دراسته الابتدائية بدمشق (تحول لتحصيل الدراسة الثانوية في مكتب عنبر، وفي مدرسة بيروت الإعدادية)[٣] وسافر الى استانبول فالتحق هناك بكليتي الحقوق والآداب، والتقى فيها كثيراً من الطلاب والمثقفين

والعلماء العرب، الذين كادت أن تصهرهم طرق الصوفية في بوتقة التتريك العثماني، وتنسيهم وطنهم ولغتهم الأم، فأسس في استانبول جمعية سرية ذات طابع قومي اسلامي مع صديقه الاستاذ عارف الشهابي وذلك في ١٩٠٦/١٢/٢٤م سمّاها (جمعية النهضة العربية) لتذكر العرب بأصالتهم، ودورهم القيادي في حياة البشرية)[٤].

لكن نشاطه السياسي أصبح ملحوظاً من قبل الاتراك فلاحقوه، فترك تحصيله في كلية الحقوق، وذهب الى اليمن عام ١٩٠٧م ليعمل في القنصلية البريطانية في مدينة (الحديدة) ثم عاد الى دمشق، وشارك في مجلة (طار الخرج) التي كانت تهاجم حكم الاتحاديين بالمقالة والصورة الكاريكاتورية، فأحدث ضجة في دمشق، مما دعاه للهجرة الى بيروت فاستانبول فالقاهرة عام ١٩٠٩م، واستقر في مصر، والتحق بتحرير مجلة (المؤيد) وعمل مع علي يوسف أستاذه الأول في الصحافة، ثم تعرف على البحاثة الكبير أحمد تيمور، الذي كان واحداً من أساتذة مدرسة دار الدعوة والارشاد التي يشرف عليها الشيخ رشيد رضا عام ١٩١٣م.

واتخذ القاهرة وطناً له حيث سكن في اجمل بقعة في القاهرة وهي جزيرة (الروضة).

* في الثورة العربية الكبرى

كان محب الدين الخطب ممن واكب مجريات الأمور السياسية في عصره أولاً بأول، وعمل على تحرر المسلمين من نير الغزو الخارجي، والتدخل الاجنبي، فلم يكن باحثاً او كاتباً او محققاً فحسب، بل (كان سياسياً)[٥] وقد كرس حياته في الدفاع عن الاسلام، ودعوة الشباب لتجديد شباب الاسلام بإحياء التراث، ومواكبة العصر، وتخليص الإسلام من القشور والبدع العالقة به، فيقول: (أنا منذ بضعة عشر عاماً الى الآن أدعو شبابنا المثقف الى التخصص في دراسة نواحي هذا الميراث المجيد وتنظيمه على النحو الذي يفعله المستشرقون والمستغربون، ولكن بنية غير نيّتهم، فهم ينظرون اليه بعين الأم الى بناتها، أما المستشرقون فيدرسونه ليستعينوا به على استعمار أوطاننا، ونحن ندعو شبابنا أن يدرسوه ليصلوا به أتينا بماضينا، ويتخذوا من قوته حصناً يجمع شتاتنا ويحمي حمانا)[٦].

لقد تمخضت الأوضاع السياسية والاجتماعية في البلاد العربية التي رزحت للخلافة العثمانية عن ثورة الشريف حسين في الحجاز في العاشر من حزيران ١٩١٦ لطرد العثمانيين، والمناداة به ملكاً على العرب، وهو ما تعارف عليه المؤرخون بـ (الثورة العربية الكبرى) فالتحق محب الدين بهذه الثورة، وأصبح مشرفاً على جريدة (القبلة) التي كان يصدرها الشريف حسين قائد الثورة، فكان نتيجة تنديده بالاتراك أن حكموا عليه بالاعدام غيابياً[٧].

واتضح للخطيب أن قائد الثورة وأولاده لم يكونوا يريدون ثورة تحمل مبادىء الاسلام الاصلاحية والفكرية، اكثر مما كانوا يبحثون عن حكم ومملكة مرتقبة، لذا كان يقول الشريف حسين: (إن الشريف حسين وأولاده كانوا يعيشون بعقلية الاقطاعيين الذين يريدون الاوطان مزارع للملوك)[٨] فكان لا ينسجم مع الشريف حسين ولا مع أولاده، لأنه يريد نهضة ويريدون مملكة وحكماً.

* مع الحركات والجمعيات

وقف محب الدين الخطيب مع كل جميعة او جماعة تعمل بصدق وجدّ لصالح العرب والمسلمين، فقد شارك في تلك الحركات التي تدعو للتقدم والقوة والرخاء، والتحرر من الأجنبي الدخيل، ولكنه كان دائماً مع الأمة والوطن، فبعض

هذه الجمعيات تحمل مبادىء وشعارات عنصرية قومية، تهدف الى ضرب المسلمين وتهديم كيانهم، وتشتيت الأخوّة الإسلامية، وضرب الخلافة العثمانية بالنعرات القومية، والعصبية الممقوتة.

لقد كان داعية مخلصاً في توجيهاته الفكرية والثقافية، لإصلاح المجتمع الذي يبذل المستشرقون والمستغربون جهودهم لإبقائه في دوّامة الجهل والتخلف، ولقد عاش حياته داعياً لذلك، فقد كان يتحدث عن نفسه فيقول: (أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الإصلاح الاسلامي، وكنت ولا أزال أفهم من هذه الكلمة الاصلاحية ان الاسلام الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما فهمه منهم التابعون، فالاصلاح الاسلامي هو تجديد الاسلام من البدع الطارئة عليه، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون انه منه، وما هو منه، ومن الاصلاح الاسلامي بث روح النشاط بين المسلمين، لإحياء مقاصد دينهم، وتحقيق أغراضه، وحسن التعبير عنه في الدعوة اليه، وتأليف الكتب عن حقائقه وأحكامه وتاريخه)[1].

وكان يرى بقاء الخلافة العثمانية كرابطة إيمانية لسائر الدول التي تنضوي تحت لوائها، مع استقلال العرب عنها ذاتياً، وقد عمل على هذا في دمشق، وبلاد الشام بعد عودته من استانبول حيث (تولى إدارة جريدة العاصمة)[9] في دمشق بعد أن تأسست الدولة العربية في سوريا بزعامة الملك فيصل بعد الحرب العالمية الاولى، حيث انتقل من الحجاز الى دمشق عام ١٩١٩م وكانت هذه الجريدة ناطقة باسم الحكومة السورية، وبقي الخطيب في دمشق الى شهر تموز عام ١٩٢٠ يكافح حكم الاتحاديين، ويعمل من أجل نهضة اسلامية، ولذلك نراه حينما ينتقل الى القاهرة يكرس جهوده على الصحافة، فيعمل في جريدة الاهرام من عام ١٩٢٠م حتى عام ١٩٢٥[11] وحينما دخلت القوات الفرنسية دمشق، وكان فيصل بن الحسين قد غادرها قبل دخول تلك القوات، استطاع محب الدين أن يتسلل من دمشق خفية الى فلسطين ثم الى مصر بجواز سفر مزور حصل عليه في يافا. وكان قد عمل قبل ذلك في تحرير مجلة (المؤيد) حتى أصبح من كبار كتابها.

راح محب الدين يحمل على عاتقه مسؤولية توعية الجماهير، وربطها بتراثها الاسلامي، فكان يكتب المقالات الكثيرة التي يدعو من خلالها الى التحرر والقوة والمجد، وكان مع كل حركة وطنية شريفة تريد أن ترفع من كرامة الوطن والمواطن، ولذلك نراه في مقدمة المتحمسين لتأسيس (حزب اللامركزية الادارية العثماني) في القاهرة عام ١٩١٣ واختاره الاعضاء لان يكون أميناً للسر ثانياً للجنته العليا.

وكان دافعه القومي الاسلامي هو الحافز دائماً الذي يدفعه لكل عمل وطني جريء.

وكان قد كتب مقدمة (المؤتمر المركزي الأول) الذي سمّي باسم (مؤتمر باريس العربي) الذي عقد في باريس في شهر حزيران عام ١٩١٣، وقام بجمع مادة الكتاب الذي أصدره بعد المؤتمر باسم (كتاب الموتمر العربي الأول).

وفي نفس العام -١٩١٣م- انضم الى جمعية العربية الفتاة السرية، وكان العضو الثامن والعشرين فيها[12].

وفي عام ١٩١٤ انتدبته احدى الجمعيات العربية السرية للاتصال بأمراء العرب في منطقة الخليج العربي، فشعر الانكليز به وراقبوا نشاطه، فسافر من القاهرة الى عدن، فاعتقله الانكليز، وأودعوه سجن البصرة، حيث بقي فيه سبعة أشهر[13].

كان يقرأ في السجن كتب التاريخ التالية: الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري، ومروج الذهب للمسعودي، وغيرهما. وكان سبب اعتقاله في البصرة أن الانكليز شعروا بمفاوضاته مع امراء العرب ابن سعود والإمام يحيى والادريسي، للتقارب بينهم باسم جماعة الوحدة العربية.

* المكتبة السلفية ومطبعتها

كان محب الدين قد تجول في اكثر ارجاء الوطن العربي يومذاك، فقد طاف بلاد الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر والدولة العثمانية وغيرها، ورأى بعد استقراره في القاهرة أن ينشر أفكاره وعصارة فكره في كتب يقوم بطباعتها، في مطبعة يشرف عليها، وتقوم بتوزيع هذه الكتب مكتبة تكون رديفة لتلك المطبعة.

فأسس المطبعة السلفية، ثم المكتبة السلفية، وراحت المطبعة تقذف بكتب التراث الاسلامي بين حين وآخر.

وراح ينشر المقالات في الصحف التي راح يوزعها، وكانت هذه المقالات تندد بقوى الشر التي تكالبت على الأمة من الداخل والخارج.

* الزهراء والفتح

كان كبار العلماء يترددون على مكتبته ، ويطبعون كتبهم في مطبعته، فرأى أن يصدر من مكتبته مجلة (الزهراء) وكانت أولى المجلات التي اصدرها وأشرف عليها، واستمرت عدة سنوات، من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣٠. وكان يرى أن نهضة المسلمين لا تقوم الاّ في الاقتباس من حضارات الأمم الاخرى في وسائل القوة، والاحتفاظ بالتقاليد التاريخية والتراث الاسلامي الزاخر، وهو يرى في الصحافة والمدرسة افضل وسيلة للنهضة فيقول: (إنما أتينا من جانب المدرسة والصحافة، فهما اللتان كوّنتا رجالنا وجماهيرنا كما نرى، ولن نتّقي شر الاحتلال الذي نتوقع ان ينزل بنا، ما لم تكن لنا مدارس وصحفاً مؤسسة على جلاميد من الايمان بالهداية المحمدية، لا تزعزعها الزلازل، وعلى دعائم من الوفاء للتاريخ العربي، يفنى الزمان ولا يفنى)[١٤].

ثم أصدر مجلته الاسبوعية (الفتح) التي كانت منبراً إسلامياً حراً، وكان لمقالاتها صدى في المجتمع الاسلامي من مشرقه الى مغربه، فكانت لها الصدارة بين المجلات الاسلامية، بل نستطيع ان نقول: انها الاولى بين المجلات حتى الآن، لما امتازت به من صدق الكلمة، وانتقاء الابحاث الهادفة.

وقد استمرت مجلته الاسبوعية (الفتح) ربع قرن، تصدّت خلال تلك السنوات للاستعمار الذي أحكم قبضته على العالم الاسلامي، واستقطبت المجلة كبار الكتّاب المسلمين وحملة الاقلام البارزين. ويذكر لنا الاستاذ الاديب انور الجندي قائمة بأسماء حملة الاقلام الذين كتبوا في الفتح منهم:

(شكيب أرسلان الذي كان يكتب من جنيف، واسماعيل الندوي وشبلي النعماني ومسعود غانم الندوي من الهند، وبهجت الأثري عالم العراق، وأحمد محرم وعمر الدسوقي من مصر، وأحمد بلا فريج من المغرب، وعبد الرشيد ابراهيم تلميذ جمال الدين الافغاني والدكتور علي مظهر، وعجاج نويهض من لبنان، والدكتور مصطفى السباعي من دمشق وغيرهم)[١٥] وقد بيّن الخطيب أهداف مجلته في أحد أعدادها فقال: (إن الفتح أنشئت لماشاة الحركة الاسلامية وتسجيل أطوارها، ولسد الحاجة الى حادٍ يترنّم بحقائق الاسلام مستهدفاً تثقيف النشء الاسلامي، وصبغه بصبغة اسلامية اصيلة، يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم

وتصرفاتهم، وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت امانته الى هذا الجيل من الاجيال الاسلامية التي تقدّمته)[١٦].

ولما توقفت الفتح قال محب الدين الخطيب عن سبب احتجابها: (أوقفتها حينما أصبح حامل المصحف في هذا البلد مجرماً يفتش ويعاقب)[١٧].

ويرى الاديب انور الجندي ان قلم محب الدين الذي استمر في الكتابة اكثر من /٢٥/ مجلداً تضم ثلاثين ألف صفحة لخّص فيها أفكاره وأهدافه التي حصرها في النقاط التالية:

١ ـ الدفاع عن حقائق الاسلام.
٢ ـ حقوق المسلمين.
٣ ـ مقاومة تيار الإلحاد.
٤ ـ الرد على خصوم الاسلام.
٥ ـ حماية اللغة العربية.
٦ ـ بعث الأمجاد والمفاخر الاسلامية.
٧ ـ إحياء التراث الاسلامي.
٨ ـ تصحيح التاريخ الاسلامي.
٩ ـ امتزاج العروبة بالاسلام.
١٠ ـ السلفية النقية في العودة الى منابع الاسلام الأولى[١٨].

*** الأزهر وجمعية الشبان المسلمين**

لم يتوقف محب الدين الخطيب عن الكتابة والتأليف والتحقيق والطباعة، وكان يشرف بنفسه على الكتب التي تطبع في مطبعته السلفية، وبعد غياب «الفتح» تولى رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» واستمر على ذلك ست سنوات من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٨م.

وقد أسس محب الدين جمعية الشبان المسلمين متعاوناً في ذلك مع كبار العلماء والمفكرين، أمثال العلامة الكبير أحمد تيمور باشا، وشيخ الازهر المرحوم محمد الخضر حسين وغيرهما وذلك عام ١٩٢٧، وكان هدف هذه الجمعية هو الصمود في وجه التيارات الإلحادية التي ظهرت في الساحة المصرية يومذاك، وتسربت الى المثقفين والصحف والمجلات وسائر أجهزة الإعلام في الدولة.

وقد بيّن الاستاذ الخطيب سبب تأسيس هذه الجمعية فقال عنها: (كان الداعي الى تأسيسها استفحال حركة التبشير من جهة، ونشاط حركة الإلحاد باسم التجديد، وذلك على أثر تنكّر الكماليين في تركيا للإسلام) وقد كتم خبرها عن الصحف حتى بلغ أعضاؤها ثلاثمائة عضو[١٩].

وحدث خلاف مع مشيخة الأزهر جعل محب الدين يستقيل من رئاسة تحرير مجلة الأزهر، ويعتكف في بيته غير آسف على وظائف الدولة. وانزوى في مكتبته ومطبعته منكباً على التأليف والتحقيق، فكان لايخرج من بيته إلاّ يوم الجمعة بعد العصر حيث يذهب الى (سوق الكتب) حول سور حديقة الازبكية فيشتري كميات كبيرة يحملها بكلتا يديه، ثم يمتطي سيارة تقلّه الى بيته في حي (الروضة) لعدم قدرته على حملها ونقلها الى بيته، لأنه قد بلغ الثمانين من عمره، فهو يتعثّر في مشيته، ويتمايل، فلا يستطيع أن يصل بيته مشياً على قدميه النحيلتين إلا بشقّ نفسه.

*** مؤلفاته وآثاره**

عاش الاستاذ محب الدين الخطيب حياة قلمية حافلة معطاءة، فدراسته وافية، وظروفه الاجتماعية تساعده على الكتابة والتأليف، وثقافته الرفيعة جعلت منه كاتباً ومحققاً وأديباً. كل ذلك ساعده على كثرة التأليف والاستمرار في العطاء الفكري حتى ساعات حياته الاخيرة.

أما أهم مؤلفاته وتحقيقاته فهي:

١ ـ (توضيح الصحيح) وهو شرح لصحيح البخاري في ثمانية أجزاء كبار، وهو مطبوع ومتداول.

٢ ـ (الحديقة) وهو مختارات من الأدب الإسلامي، ويقع في أربعة عشر

جزءاً.

٣ ـ (مع الرعيل الأول) تحدث فيه عن عصر الصحابة ومن جاء بعدهم، مطبوع.

٤ ـ (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب).

٥ ـ البهائية

٦ ـ ذكر موقعة حطين

٧ ـ رسالة الجيل المثالي

٨ ـ حملة رسالة الاسلام الأولون

٩ ـ (الغارة على العالم الاسلامي) ترجمة.

١٠ ـ تاريخ مدينة الزهراء بالأندلس

١١ ـ الأزهر.. ماضيه وحاضره

١٢ ـ الخطوط العريضة للديانة الإثني عشرية الإمامية

١٣ ـ دفاع عن الحديث النبوي

١٤ ـ (العواصم من القواصم) تعليق.

١٥ ـ (سرائر القرآن) ترجمه عن التركية(١) وهو مطبوع.

١٦ ـ (أيمان العرب في الجاهلية ـ للنجيرمي) تحقيق./ وقد قمنا بتحقيقه وصدر عن مكتبة التراث بدير الزور عام ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٧ ـ (المنتقى من ميزان الاعتدال للذهبي) تعليق.

١٨ ـ (مختصر الإثني عشرية للألوسي) تعليق.

١٩ ـ (الإكليل للهمداني) تعليق.

٢٠ ـ (الأدب المفرد للبخاري) تخريج أحاديث.

٢١ ـ (فتح الباري لابن حجر العسقلاني) تنسيق أحاديثه.

وله مئات المقالات المفيدة والنافعة في المجلات والصحف اليومية والاسبوعية والشهرية، وخاصة في مجلاته (الزهراء، الفتح، الأزهر) وكانت مكتبته الخاصة تضم (نحو عشرين ألف مجلد مطبوع تغلب فيه النوادر)(٢١).

*** وفاته**

عاش محب الدين حياة علمية عريضة، فقد عاش بين المحابر والدفاتر حياته التنقلة ما بين استانبول ودمشق وصنعاء والقاهرة. وكذا مات بين ركام مكتبته العامرة في بيته في القاهرة سنة (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩) رحمه الله، وجزاه عما كتب خير الجزاء.

*** الهوامش:**

١ ـ الأعلام للزركلي (٥/٢٨٢).

٢ ـ مجلة الجامعة الاسلامية (ص١٤٢) العدد الثالث ـ محرم ١٣٩٠هـ

٣ ـ المستدرك على معجم المؤلفين (ص٥٧٦)

٤ ـ مجلة الجامعة الاسلامية (ص١٤٢).

٥ ـ المستدرك على معجم المولفين (ص٥٧٦)

٦ ـ مفكرون وأدباء (ص١٩٨)

٧ ـ الأعلام للزركلي (٥/٢٨٢)

٨ ـ مجلة الجامعة الإسلامية (ص١٤٣)

٩ ـ مفكرون وأدباء (ص١٩٧)

١٠ ـ الأعلام (٥/٢٨٢)

١١ ـ الأعلام (٥/٢٨٢)

١٢ ـ المستدرك على معجم المؤلفين (ص٥٧٦)

١٣ ـ الأعلام (٥/٢٨٢) والمستدرك على معجم المؤلفين (ص٥٧٦)

١٤ ـ مفكرون وأدباء (ص١٩٩)

١٥ ـ مفكرون وأدباء (ص١٩٦-١٩٧)

١٦ ـ العدد الاول من عام ١٣٥٣هـ من السنة التاسعة. ومفكرون وأدباء (ص١٩٥)

١٧ ـ مفرون وأدباء (ص ١٩٦ ـ ١٩٧)

١٨ ـ مجلة الجامعة الاسلامية (ص ١٤٤)

١٩ ـ مفكرون وأدباء (ص٢٠٠)

٢٠ ـ مفكرون وأدباء (ص٢٠٣)

٢١ ـ الأعلام (٥/٢٨٢)

٢٢ ـ المرجع السابق

*** المراجع والمصادر**

١ ـ الأعلام ـ الزركلي، طبعة خامسة، دار العلم للملايين، بيروت.

٢ ـ المستدرك على معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٣ ـ مفكرون وأدباء ـ أنور الجندي ـ دار الارشاد، بيروت، ط أولى

٤ ـ مجلة الجامعة الاسلامية ـ المدينة المنورة، العدد /٣/ ١٣٩٠هـ

أحمد رفيق المهدوي
شاعر الوطنية والعروبة

بقلم:
د. محمد صلاح الدين بن موسى

شاعر ليبيا الكبير ولد في بلدة «فساطو» في ليبيا عام ١٨٩٨ حيث كان والده قائمقام هناك في منطقة الجبل. وقد تعلم في نالوت ثم في مصراته وفيها درس الفرنسية. وفي سن الثالثة عشرة هاجر الى مصر مع عائلته وعاش في مدينة الاسكندرية والتحق بمدارسها ومنها حصل على الشهادة الابتدائية ثم الكفاءة ثم البكالوريا، ومنذ ذلك الحين بدأ يكتب الشعر.

عاد الى ليبيا وأقام في بني غازي حيث التحق بوظيفة سكرتير بمجلس بلديتها، ولكن الايطاليين الفاشستيين الذين كانوا يسيطرون على ليبيا عزلوه واضطهدوه فهاجر الى تركيا في ١٩٢٤ حيث استقر في ولاية أددرتة في بلدة جيحان لأنه كان له أقارب بها وعاش فيها فترة طويلة الى أن عاد مرة اخرى الى ليبيا في ١٩٤٦ واستقر بها حتى وافته منيته في الحركة الوطنية التي توجت باستقلال ليبيا في ١٩٥٢ فعين عضواً بمجلس الشيوخ الليبي.

وقد كان للحوادث الكبرى التي وقعت في ليبيا ومصر وفلسطين وتونس والشرق العربي عامة صداها القوي في شعره.

كان رفيق المهدوي رجلاً ضخماً يعتمد في سيره على عصا غليظة، أبيض البشرة في حمرة، جميل الصورة كما يمكن لكهل ان يكون جميلا تحسبه من سلالة تركية ويزيده شبهاً بالترك انه يلبس قلنسوة سوداء من فراء الحملان يسير في الطريق كأنه لا يرى أحداً ويجلس على «القهوة الوطنية» في ميدان البلدية في بنغازي كأنه لا يرى أحداً أيضاً. فإذا اجتمع حوله بعض اصدقائه ممن يتسع المجلس لهم نبض الميدان كله بالحياة فهو من أشبه الناس بالشاعر المصري حافظ ابراهيم ومجلسه اقرب المجالس الى حلقة حافظ ابراهيم، ولكن المتأمل في هيئته اذ رآه جالساً وحده في مكانه منعزل على شاطىء البحر يراه أقرب شيء الى

الصورة المعروفة عن الشاعر المصري احمد شوقي.

وقد قال رفيق الشعر وهو في العشرين ولم ينقطع عنه حتى أسكته القدر وهو في الثالثة والستين، فقدم رفيق في هذه الفترة الطويلة للأدب العربي عصارة قلب وتجارب نفس وإحساسات إنسان تعكس جهاد شعب وكفاح أمة في تراث خالد فهو رائد من رواد الكفاح الليبي ومن ألمع الشعراء في تاريخ الأدب الليبي الحديث وشعره مرآة صادقة تعكس روح العصر بوضوح، وتصور الشاعر في مختلف أطوار حياته تصويراً دقيقاً، ولعل أروع ما يتضح من شعره هو تلك التجارب الشعرية التي صورها رفيق فأحسن تصويرها، وقد حاول ما وسعته طاقته الغامرة أن يبرزها في إطار شائق جذاب دون أن يحيد بها عن نطاق الحقيقة فنحن إزاء شاعر يطل على مرائي الطبيعة ومواكب الحياة من خلال أحاسيسه اليقظة.

ولقد تجلى حرص الشاعر على مواكبة الذوق العربي الأصيل في استمساكه بقواعد الشعر التي قعدها العرب وإيثاره لبحور ذلك الشعر وقد استهدى أحمد رفيق المهدي في شعره بما أبدعه القدامى في هذا المجال فاستطاع بروحه الشفافة الملهمة وقدرته البيانية على تطويع اللغة لفنه أن يأتي بشعر عربي مبين يبهرك في كثير منه بطلاوته المشرقة.

ولكن هذا لم يمنع الشاعر من أن يجهر بالدعوة الى الجديد في قصيدته التي يقول فيها:

أما آن للشعر أن يستقلّ
ويخلص من ربقة القافيهْ
فقد طال والله تقييدهُ
بتقليدنا الأعصرَ الخاليهْ
إلامَ تسيرُ بوزن الخليل
ونرسف في قيدها لعائقٍ
وللشعرِ في كلِّ لحنٍ جميلٍ
مجالٌ مع النغمِ الشائقِ
فيا شاعر العصر جدّد لنا
من الوزنِ غير ما نعرفُ
ولا تخشَ مُرَّ انتقاد الفلاة
فسوفَ يُؤيّدُكَ المنصفُ

* * *

ولكن دعوة الشاعر هذه قوبلت بالتحفظ، بسبب الخوف الذي يسكن في نفوس الكثيرين والذي يدفعهم الى اعتبار كل تجديد طارق مريب فيه خروج على التقاليد وتحطيم للتراث التليد.

فهذا المحيط المتوجس من كل تجديد والذي عاش فيه الشاعر كان من القهوة والسيطرة بحيث انه قيده بعمود الشعر العربي فنجده في قصيدته التي يدعو فيها الى التجديد يلتزم بالبحور التقليدية للشعر العربي، ويكتفي بمحاولة التجديد في المضمون أي في الافكار والموضوعات والاخيلة.

ولا ريب ان الشاعر رفيق المهدوي لم يكن ليستطيع أن يتولى المسؤولية الكبرى وهي تجديد الشعر في ليبيا تجديداً شاملاً يشمل الشكل والمضمون وهو الذي عاش حقبة طويلة من عمره وهي فترة النضج والاكتمال مغترباً في تركيا خشية ان يظن ان وشائجه بالذوق العربي قد قطعتها تلك الغربة الطويلة، ذلك رغم ان هذه الغربة قد صهرته وأرهفت من حسه في بوتقة الألم والشجن والحنين فنراه يقول:

إنَّ مَنْ عاش غريباً عاش لا شك كئيبا
عاش مجهولاً مضاعا ينفقُ العمر التياعا

* * *

فلعل اغترابه عن وطنه هو الذي منعه من أن يقبل على التجديد في شكل الشعر والتحرر من التمسك الجامد وذلك بالصياغة الشعرية القديمة كما يطلب من الشعراء في قصيدته حتى لا يسبق الوضع في وطنه الى درجة تهدد بقطع اتصاله به.

وهناك من المعجبين بالشاعر الليبي رفيق المهدوي من يرى في شعره أثراً واضحاً لشعر شوقي، ويرى أنه في بعض قصائده لم يستطع أن يتخلص من جو شوقي وألفاظه ومعانيه.

قال شوقي في الربيع:

آذارُ أقبلَ ، قُمْ بنا يا صاحِ
حيِّ الربيع حديقة الأرواحِ

وقال رفيق المهدوي في الربيع معارضا قصيدة شوقي تلك:

جاء الربيع فقم بنا يا صاحِ
نلقَ الزّمانَ يَمُرُّ بالأفراحِ

* * *

في شعر المهدوي نجد الجمع بين القديم والجديد فنجده وهو يتغزل غزلا تقليديا على طريقة العرب القدامى يشبه بالظبي والمهاة ويصف المرأة وصفاً حسياً خالصاً.

يقول:

أغراكَ معْ حُسْنِ الدلال جمالُ
فصددت تيهاً والصّدود قتالُ
يا من تملّك مهجتي وجوارحي
أليك تعذيب المحبِّ حلالُ
ترمي جفونك تحت قوسَيْ حاجبٍ
فبكلِّ قلبٍ أسهمٌ ونبالٌ
ما بين ثغركَ والخدود تحيّرت
سوداء قلبي ليس ذلك خالُ
والوردُ خدّك قد تقسّم بيننا
فيمهجني شوقٌ وفيك جمالُ

* * *

كذلك فإنه يرثي رثاء تقليدياً متبعاً أسلوب القدامى في تمجيد المرثى والارتفاع بمقامه الى أسمى الدرجات، وإن كان يحرص على أن يمجد عقل المرثى وفكره لا قوته البدنية وفروسيته كما فعل القدامى في مراثيهم. قال يرثي الشاعر الزهاوي:

عبقريٌّ الناس وقفٌ للبقاء
لم تمُتْ يا فيلسوفَ الشُّعراءِ

* * *

كنتَ للتجديد تسعى دائماً
قُمْ فألهمنا أفانين الرِّثاء
علّنا نأتي بفنٍّ غيرما
كان تقليداً لفنِّ القدماء

* * *

شعرُكَ الممتعُ السّهلُ الذي
كاد يُعنى بالمعاني واضحاتِ
لفظه وافق معناه كما
مازج الطّيبُ لطيفَ النّسماتِ

* * *

أنتَ حُرُّ الفكر حيٌّ لم تمُتْ
لمْ تَمُتْ يا فيلسوفَ الشّعراء

* * *

كُنتَ للشّرقِ محبّاً مخلصاً
لا تَنِي تبعثُ فيه الشعر حيّاً

* * *

فيلسوفُ أوتي الحكمة لو
كان قبلَ المصطفى عُدَّ نبيّا

* * *

ولكننا في قصائد أخرى للمهدوي نجده مجددا روحاً ومعنى وأداء وخيالا.

فيقول في قصيدة يا شبابي:

بين دمعي ونحيبي
يا شبابي تتلاشى
كتلاشي الطّلّ في الشـ
ـمس من الزّهرّ يطير
يا ربيع العمر يا عمر
زهور الياسمين
يا حثيث السير يا ها
رب بالوقت الثمينْ
أنت للإنسان كالنّشـ
ـوة في الخمر العتيقة
أنتَ للحُسنِ وأنتَ
الحسنُ روحٌ في الحقيقة
رغمَ آهاتي وحرصي
يا شبابي تتلاشى
كتلاشي الطّلّ في الشـ
ـمس من الزّهر يطير

* * *

كُلّما أحسستُ ضعفاً
زدتُ علماً بمكانكْ
خفيت قيمتها القوّة
عنّى في زمانك
لست إلاّ شهوةً
في الدّم تغلى وتفور
لستَ في الأرواح
إلا كبرياء وغرور

* * *

وبعد فهذا شاعر يصدر في شعره كله عن تجربة وعن عاطفة تراه مغرماً بالجمال والشعر فهما لديه صنوان:

فالحبُ معنى الحياة فيه سر الوجود
والشعر معنى الجمال فيه سر الخلود
قد هِمتُ بالشعر والجمالِ فيا شقائي
مَنْ كانَ في حالهِ كحالي ففي عناءِ

* * *

والشعر عنده فيض المشاعر ونغمات الوجدان لا يتكلفه ولا يتعسف اليه الطريق ويحكم فيه ذوقه المرهف، يأتي اليه كما يأتي الوحي والإلهام، حين يكون في غيبوبة وجدانية تملك عليه حسه.

يقول:

إذا القولُ أدّاهُ الشّعورُ معبّراً عن الرّوح أغنى من قوافٍ وأوزانِ
ألا إنّ روح الشّعر ذوقٌ كأنّهُ هو الوحي يأتي من شعورٍ ووجدِ

* * *

وهذه سمة الشاعر الحق. ولعل ما يذكر من فضائل المهدوي أنه لم يكتب الشعر تملقاً او مديحاً كاذباً فهو ممن لا يجيدون الرياء والمداهنة بل هو أنف جرىء ولكنه حين يمدح فإنما عن شعور صادق بالتقدير للشخص الذي يمتدحه، ويمتدحه في اعتزاز.

* * *

ويلقب الشاعر أحمد رفيق المهدوي بشاعر الوطنية، والحقيقة التي يعرفها عنه الجميع أنه عاش حياته كلها مخصصاً كل فكره لقضية وطنه ومشاكل شعبه.

قال حاثا بني وطنه على الجهاد من أجل الاستقلال:

يأيّها الشعبُ لا تسكت على جنفٍ طالبْ بحقّك: إنّ النّصر بالطّلبِ
لا تلتمس غلباً للحقِّ من فئةٍ الحق عندهمو نوعٌ من الغلبِ

* * *

ثم يقول داعيا بني وطنه الى توحيد صفوفهم:

إنْ لمْ نُوَحّدْ رأينا وجوابنا فمصيرنا للرقِّ غير غريبِ
قولوا لهم بلسانِ شخصٍ واحدٍ هذي مطالبُ كلّ حرٍّ ليبي

* * *

وقد جاهد حق الجهاد فرأيناه حيناً يترسل بآلام وطنه الذي هزت الأحداث موضع السكينة فيه. وحيناً آخر يشكو مما صنعته به مطاوح الغربة ومرامى النوى بسبب نفيه خارج وطنه، وكل ذلك يصوغه في شعر عذب يستجيب له الذوق والضمير.

وهو كعربي أصيل يشعر بوحدة الأمة العربية كلها، إنه في شعره يشعر بالانتماء الى كل بلد عربي وتهزه من اعماقه آلام العرب في كل ركن من أركان الوطن العربي إن مأساة فلسطين هي مأساته ومأساة كل ليبي، فيتحدث عنها الشاعر في كثير من شعره ويحاول أن يعمق الإحساس في وجدان مواطنيه بالمأساة الفلسطينية، وإن كان يبدو يائساً وهو معذور في يأسه هذا لأن الكفاح من أجل استرداد الأرض السليبة من الصهيونية لم يكن قد اتجه بعد الى الدرب السليم وهو الكفاح المسلح والمقاومة المسلحة في أرض فلسطين المحتلة ذاتها.

نراه يقول باكيا فلسطين:

ضاعت فلسطين لا بالسيف من يدنا لكن بأصبع غدّارٍ ومنسحبِ
ضاعت بأيدي رجالٍ لا مرام لهم إلاّ الحصول على الأموالِ والرّتبِ

* * *

ويقول أيضا:

فلسطينُ في الأعماق ما زالَ جرحها يغُجُّ دماً أو أدمعاً تترقرق

* * *

ويقول عنها:

فلسطينُ لولا الغربُ ماجاس حولها لشذّاذ اسرائيل شعبُ مُلفّقُ

ولا صار ذكرُ اللاجئين إذا نما
إلى عربيّ قلبه يتمزّقُ
* * *

وكان الشاعر المهدوي سريع التأثر والاستجابة للأحداث التي تتعرض لها البلاد العربية كلها من مشرقها الى مغربها ، وهذا لأنه كان يشعر شعوراً قوياً بالوحدة العربية والقومية العربية، ويرى بعين بصيرة وحدة المصير بين الدول العربية كلها رغم ما يبدو أحياناً من مظاهر الخلاف بين بعضها البعض.

قال الشاعر عن تونس مشاركا إياها في صراعها ضد الاستعمار الفرنسي:

فلسطينُ لما يندملْ بعدُ جُرحُها
وهاهو في الخضراء آخرُ يفهقُ
شقيقتُنا بنتُ العروبة تونسٌ
تقلّبُ في جمر الطُغاة وتحرقُ
يُضامُ بها الشّعبُ المطالبُ حقَّه
ويعدمُ رمياً بالرّصاص ويشنقُ
لقد برهنَ الشّعبُ الفرنسي أنه
بعيدٌ عن العدل الذي يتخلّقُ
وأنّ الفرنسيينَ أولُ قائلٍ
بحريّة الإنسانِ زورٌ منمّقُ
بعيدٌ عن الحريّة الجائر الذي
يجور على حريّة الناس يخنقُ
* * *

ثم قال حاثا العرب للتعاون مع تونس ضد الاستعمار الفرنسي

الا أيها الشّرق انتبه إنّ تونسا
عليها جميع الغرب بالجور مطبقٌ
اذا لم تدافع «كتلةٌ عربيّةٌ»
يُقامُ لها ميزانُها حينَ تحنقُ
ويتّحد الشّرقُ الضعيفُ فإنّه
على ضعفه بالاتحاد يُوَفّقُ
فما حيلةُ الشعب المجاهد وحده
(ألا إنّ كفّاً وحدها لا تصفّق)
ولم يبق سرّا ما يكنّون نحونا
فما فعلوه في فلسطين ينطقُ
يوارون عنّا بالصّداقة حقدهم
وما فيهمو إلاّ عدوٌ محقّق
* * *

بل إن الشاعر الليبي رفيق المهدوي يكشف عن بصيرة نافذة سليمة حين يحذر العرب من الغرب الذي يتظاهر بصداقته لبعض الدول العربية وهو في الحقيقة يسعى لاستبعاد العرب وتحطيم وجودهم.

يقول محذرا العرب من الغرب الاستعماري:

أحذركم يا قوم من أصدقائنا
وإن أسرفوا في حبّهم وتملّقوا
فإنّي أرى أشياء لو قلت إنها
تريبُ لقال الناسُ إنّي محنقُ
لقد تركونا من توالي خداعهم
وإن صدقوا في ودّنا لا نصدّق
* * *

إلى آخر هذه القصيدة الجميلة القوية..

ويسترسل المهدوي في دعوته الى وحدة العرب محذراً إياهم من خداع الدول الاستعمارية فيقول:

عارٍ على دولٍ في الشرق يجمعها
دينٌ وتشقى برأيٍ غير متّحد
أما كفى مالقينا من تخاذلنا
أمامَ شرذمةٍ من سفلةٍ فُسد
ألم تعظنا فلسطين التيّ ذهبتَ
ضحيّة الخلف والتسويف واللدد
ألم نزل من خداع الحيزبون على
جهلٍ نؤمّل في إنصافها لغد
عدوةُ الشّرق والإسلام ما فتئتَ
تفُتُ بالدّس والتفريق في العضد
كم من مفاوضةٍ أفضت الى فشلٍ
وكم معاهدة خابت ولم نفد
ما خلقهم غير خلف للوعود ولا
ميثاقهم غيرُ نفث الغشّ في العقد
لا تؤمنوا بدفاعٍ قيل مشتركٍ
فإنّه شركٌ. من ينخدع يصدع يصطدُ
* * *

وهذا الجزء من قصيدة رائعة للشاعر الأصيل عنوانها «من ليبيا الى مصر» كتبها بوحي من الصراع الذي شنته مصر لإخراج الإنجليز من قناة السويس في عام ١٩٥٤ والتي مطلعها:

يا مصر هذا أوان الجدّ فاتحدي
وجاهدي في سبيل الحقّ واجتهدي
يا مصر ما ظهر الإسلام منتصراً
إلا بما كان في بدرٍ وفي أحد
الحقّ ينصره صبرٌ وتضحيةٌ
لا خوف من قلة الأعداد والعدد

* * *

ويقول فيها أيضا:

أنتم بنو مصر والسودانُ ضمّكُما
جسمٌ وأنت له كالقلب والكبد
ذودوا عن النيل ولتجرِ القناة دماً
كالسيل يدفع بالغثاء والزبد
لكم عزائم رأى لو رميتَ بها
عند الهياج نجومَ الليل لم تقد
يأهل مصر وأنتم أهلنا ولنا
من القرابة ما للأمّ والولد
نحن الفداء لكم والله يشهد ما
بتنا لما نابكم إلاّ على كمد
وحبّنا مصر كالإيمان موضعه
من القلوب مكان النّبض والورد
قلب العروبة يشكو ما ألمّ به
فكيف لا يتأذّى سائرُ الجسد

* * *

وهذه القصيدة توضح المستوى الفكري السياسي الرفيع الذي تمتع به شاعرنا، فإنه يفهم فهماً سليما قضايا الشرق السياسية، فهو يحذر من الحيزبون انجلترا المستعمرة الأولى التي لا تفاوض الا لتخدع، ويوضح حقيقة «الدفاع المشترك» بأنه شرك لاصطياد الدول العربية في حبائل الاستعمار.

وهو حين يناجي مصر في محنتها مع انجلترا إنما يعبر تعبيراً صادقاً عما يشعر به كل عربي إزاء أي بلد عربي آخر يكون في محنة.

أما وطنيته فقد اوذي من أجلها الى الدرجة التي جعلته يوثر الغربة عن وطنه على عيشة الضيم والمهانة في ظل الاحتلال الطلياني الذي كرهه من كل قلبه.

قال عن ايطاليا لما رحلت عن ليبيا:

قد انطلق الحمار بأمّ عمروٍ
فلا رجعت ولا رجع الحمارُ
إلى بئس المقرّ وحيثُ ألقت
برحلٍ حول ساحيه دمارُ
مضت مصحوبة بدعاء سرٍ
يكرّره شماتٌ واحتقار
ذكرنا عهدك الماضي فقلنا
وفي الماضي لمن بقي اعتبارُ
فهل وعظتك أحداث الليالي
بما فيها اعتبارٌ وادّكارٌ
وهل أيقنت أنّ الحقّ يعلو
وأنّ عواقبَ البغي البوار
لقد أسرفت في الطغيان حتّى
بدت منك الحماقة والفشار
ودلاّك الغرور الى التّفنّي
بأحلامٍ فبدّدها اندحار
سنذكر ما حيينا منك ثاراً
له في طيّ أضلعنا أوار
سنذكر حادث البطل المفدّى
«أبي المختار» ما طلع النّهار
ونأخذُ ثأره حتماً فعار
نعيش وشيخنا دمه جبار
شهيد الحقّ مبدؤه جهادٌ
بإيمانٍ وذاك لنا شعارٌ
اذا لم نستقل فمستحيلٌ
يقرُّ لنا على ضيمٍ قرار

* * *

فقد طوى الشاعر برد الشباب منفياً بعيداً عن وطنه بسبب بطش الحكم الايطالي الفاشستي به ولم يعد الى بلده الا في عام ١٩٤٦ بعد الحرب العالمية الثانية وخروج ايطاليا من ليبيا.

وقد أورثته الغربة على حد قوله ضنى وسقما وعلة، ولكن شبابه وحياته التي ضاعت في الغربة فداء لوطنه.

يقول:

يهون علي مثلي ضياعُ شبابه
فداءً لأوطاني، ولستُ بمنّانِ

* * *

كما أنه يحدد دور الشاعر في معركة الكرامة الوطنية فيقول:

مقالة الحقّ جلجلها وإن جرحت
ولا يهمّك من في نفسه إحنُ

فالجهر بالحقّ فخرٌ لا يفوز به
في مأزق القول إلاّ الفاتكُ اللّسنُ
وما الشجاعة في حربٍ بأفضل من
تصريح حرّ بحقّ أهله وهنوا

* * *

ويبين أن الحر ليس أمامه أن يختار إلا بين أمرين الحرية أو الموت:

ليس للأحرار في الدنيا سوى
خلع نير الذلّ أو لبس الكفن

* * *

كما يقول:

ولستُ أبالي أن تجرّ صراحتي
جفاء عظيمٍ أو عداوة غضبان
اذا المرء في دين وعرضٍ ومبدأ
تسامح أو حابى فليسَ بإنسانٍ

* * *

بل إنه يربأ بالشاعر أن يتخذ من فنه بضاعة يتاجر بها طلباً للمال والجاه فيقول مبرئاً نفسه عن هذه الفئة من الشعراء المرتزقة:

تنازلت عن لقب الشاعر
ولم أك من قبلُ بالناثر
فقد اصبح الشعر في عصرنا
بضاعة من ليس بالشاعر
ومن كان مثلي من المفلسين
فليس له صنعة التاجر

* * *

ويحرص المهدوي على أن يدعو العرب الى التمسك بالأخلاق العربية الصميمة في رفض الذل والاستكانة.

فيقول:

لا تستكنْ على الإهانة راضياً
بالذّلّ، ترجو أن يقال حليمُ
بل فاجز كلّ إهانة بإهانة
أخذاً بمثل الثأر فهو عظيمُ
واجعل لنفسك في القلوبِ مهابةً
كي لا يظنّ الجبنَ فيك لئيمُ

* * *

كما أنه يحرص على دعوة الشعوب العربية الى النهوض والى اثبات وجودها وكيانها. فيخاطبها قائلا:

للشعب في هذا الزّمان إرادةٌ
تملي الحقوق وتصدر الأحكاما

* * *

لعل رفيق المهدوي من أكثر شعراء العربية إنشاداً فالسياسة في ليبيا في السنوات الثلاثين التي سبقت الاستقلال كانت جهاداً وطنياً ضد الاستعمار والطغيان، وكان رفيق الشاعر لا يستطيع الا أن ينشد في طليعة الصفوف المجاهدة بدمائها، فلم يكن له بد من أن يستمر في مكانه من صفوف الشعب في كل مناسبة تعرض له في الوقت الذي كان فيه تقرير مصيره، وكانت أناشيده في تلك المناسبات تعبيراً عما في قلوب هذه الصفوف المائجة لا تعبيراً عن خلجات الشاعر الخاصة بذاته فحسب، بل كانت هذه الأناشيد أشبه بما يقول الخطيب المتحمس ـ أناشيد حلوة صافية شفافة تسري فيها حماسة الوطني، ودفعة المناضل لما يناضل في سبيله وتتخللها سخرية لاذعة ممن يقف عقبة في طريقه أو فكاهة ظريفة يقذف بها على خصوم أرائه.

* * *

ولكن روح الشاعر الحقيقة تظهر على حقيقتها عندما يتحدث عن اضطراره الى هجر بلده ليعيش في منفاه.

قال مودعا وطنه:

سأرحل عنك يا وطني وإني
لأعلمُ أنّني قد جئت اذا
ولكنّي أطعتُ إباء نفسٍ
أبت لمرادها طي الكون حداً
على النّفس إن عظمت شقاءً
يلذّ لمن الى المجد استعداً

* * *

ورغم أنه اختار أن يعيش في تركيا في بلدة جيحان لأن له أقارب فيها الا ان بعده عن وطنه وحنينه اليه جعله يرى منفاه شراً واهله كلهم أشراراً.

قال يصف المدينة:

تكامل حولٌ منذ فارقتُ أوطاني
فما نلتُ في أثنائه غير أحزاني
نوى قذف، زمّت ركابي ولم تزل
تقلقلُ بي حتّى أتت أرض جيحان
فألقت عصا التسيار في شرّ بقعةٍ
تألّب في أرجائها شرّ سكّانٍ
تركتُ بلادي إذا شعرت بأنّني
سألقى صغاراً منه يأنف وجداني
وسرت لأرضٍ غير أرضي مؤملا

لعزٍ فكانا في المصيبة سيّان
فيا خيبة المسعى الى غير موئلٍ
من النّجع مشفوعٍ بأعظم خسرانِ
فقدت بلادي وهي عندي عزيزة
ولم ألق ما أملت في بلد ثاني
كأنّي غراب البين ضيع مشيه
ولم يكتسب مشى الحمام بإتقان
حنيناً وشوقاً يا بلادي فإنّني
وإن طال عنك العهد لست بخوّانِ
فما كان بعدي عنك الاّ ترفّعاً
عن الضّيم لا بغضاً ولا قصد هجران

* * *

وعندما هزه الحنين الى وطنه أنشد قصيدة نونية تذكرنا بشعر ابن زيدون وتعيد لنا أصداء أناشيد شوقي وهي من أبدع قصائده. قال:

يا منِ على البعد نهواه ويهوانا
لشدّ ما شفنّا شوقٌ فأضنانا
ذكرى عهود الهوى باتت تساورنا
يا من يبلغ للأحباب شكوانا
إنا بحكم الهوى صرنا ولا عجبٌ
نزداد ذكراً لمن يزداد نسيانا
ما أنصفتنا الليالي في نوىً تركت
جسماً هنا وهناك القلبُ ولهانا

* * *

فلما عاد الى وطنه نسي كل آلامه في المغنى: قال:

رجع المطوّحُ من بعاده
عاد الغريب الى بلاده
الحبُ يفعم روحه
والشّوق يلهب في فؤاده
وبشائر المستقبل الزّا
هي تضاعف من جهاده
أهون بما قاساهُ من
عسفٍ ونأيٍ عن بلاده

* * *

وقد عاش يكره ايطاليا ولم ينس أبداً خطاياها في حق وطنه ووحشيتها في معاملة الأحرار الأبرار، ولما هزمت في الحرب العالمية الثانية شمت بها كل الشماتة وعيرها بالفرار والجبن.

قال:

قد فرّقتنا وما زالت تفرّقنا
عدوّة الشّرق والإسلام والعرب

* * *

ثم يذكر ماب بينها وبينه هو وكل أبناء ليبيا من ثارات وتارات ويذكر الشهيد عمر المختار وحقه عليهم في الثار منها.

يقول:

عُمر المختار ينسى ثأره
يا لقومي يالثارات عمر

* * *

ولكنه رغم كرهه الشديد لإيطاليا ظل ينظر دائماً الى انجلترا على انها العدو الألد للعرب سبب كل نكبة أصيبوا بها وأنها دائماً تسعى للتفريق بينهم وتوهين شوكتهم.

وقد قال فيها بيتا سائرا:

قد فرّقتنا وما زالت تفرقنا
عدوّة الشرق والإسلام والعرب

* * *

وقد صدق الشاعر تماماً في إحساسه هذا تجاه انجلترا فهي التي طبقت شعارها الاستعماري الشهير «فرق تسد» في البلاد العربية فقسمتها تقسيما مصطنعاً في كثير من الأحوال، وبذرت بذور العداوة بين حكامها، وأثارت النعرات القبائلية والعائلية والطائفية بين أبناء العرب، ومجدت الخصومات بين الأسر الحاكمة في كل دولة منها، ثم ختمت فعلها البغيض بالشرق بثالثة الأثافي فقامت بزرع القاعدة الاستعمارية اسرائيل في قلب العالم العربي لتستنزف قوى الشعب العربي في صراعه ضدها ولتكون موطىء قدم للاستعمار الانجليزي ثم الامريكي من بعده في قلب العالم العربي وفي أقدس بقعة من بقاع أرض القدس المقدسة. والشاعر الملتهب الوطنية يصف قدوم الاستعمار الانجليزي ثم الامريكي من بعده في قلب العالم العربي وفي أقدس بقعة من بقاع أرض القدس المقدسة. والشاعر الملتهب الوطنية لا يصف انجلترا الا بكلمة الحيزبون ولو سمحت آداب الشعر لوصفها بما هو أفظع من ذلك.

والحديث يطول والاستشهاد كثير لو رحنا نعدد نواحي وطنيته وعروبته ولو رحنا نذكر جهاده في سبيل اصلاح وطنه بعد عودته من منفاه بلسان جريء قوي مما يدل على انه في جهاد مستمر حتى بعد أن

صار عضواً في مجلس الشيوخ وأنه لا يحابي في الحق أحداً.

قال عنه بشارة الخوري «الأخطل الصغير»:

«أنا تجاه شاعر ينتقل في حدائق الشعر يختار أطايبها وكان من أبرز هذه الأطايب شعره الوطني يستنفر به بني قومه لتحطيم القيود التي يرزحون تحتها ويستحثهم على الانطلاق من ربقة المظالم ويهز مشاعرهم بتصوير القبائح التي يفرضها عليهم المستعمر، الى آخر ما يتوسل به المصلحون لإنهاض بلادهم من الهوة التي حشروا فيها».

* * *

قال عنه الدكتور علي الجندي أستاذ الأدب المقارن بجامعة القاهرة:

«إنه شاعر واسع الأفق سريع التأثر بكل ما حوله من مظاهر الكون المختلفة.. فصاحبنا شاعر يعرف حقاً معنى الشاعرية، شديد الحساسية عميق الوجدان.. كان المعبر الأول عن حال وطنه العزيز يرسم آلامه ويرسل كلماته قوية حارة تفيض بالحماسة والغيرة والأمل فيلهب الشعور الوطني ويعبىء القوى ضد الغاصب المستعمر..»

* * *

قال عنه الأستاذ الأديب محمد فريد أبو حديد:

«.. ولكن الهمسات الحقيقية التي تعبر عن روح رفيق حقاً، هي تلك التي يرددها في نفسه ولنفسه في سبحاته الصامتة ـ عندما يبعد عن النافذة التي يخاطب فيها مواطنيه وعندما يسمو فوق التيارات المضطربة بالأحداث، وعندما يتطلع الى الافاق العليا ملتمساً خيط الشعاع الخافت الذي لا تراه الا العيون الصافية وراء طيف الأشعة الظاهرة ـ هذه الهمسات هي التي يتجلى فيها روح رفيق ، وهي تمثل أدبنا العربي الحديث درباً جديداً يشبه الدروب التي يشقها الشعراء العرب في المهجر وشعراء الشباب المجددون في أطراف البلاد العربية.

* * *

قال عنه الأستاذ عمر الدسوقي أستاذ الأدب ورئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة:

«.. لأن أول ظاهرة تسترعي الانتباه في شعر المهدوي أنه كان صريحاً في شعره صراحة تستطيع أن تستشف منها روحه وأخلاقه ومدى ما في هذا الشعر من عاطفة وصدق، وأنه كان ذا مبدأ ظل وفياً له الى اليوم على الرغم من الأحداث الجسيمة التي عاناها في حياته.. واذا استطاع الناقد ان يتعرف على الشاعر من شعره دل ذلك على أصالة هذا الشعر وعلى أن الشاعر يصدر فيه عن نفسه سليمة وأنه صادق مع هذه النفس لا يعرف المواربة والمداهنة وهذه لعمري سمة من سمات الشاعرية الحقة».

وقد كتب السيد عبد المولى عوض لنقي وزير العمل والشؤون الاجتماعية في ليبيا في تصديره لديوان المهدوي يتحدث عن الشاعر.

قال:

«قاد رفيق معركة الفكر فأنار بروحه الطموحة درب الكفاح الطويل وبث في نفوس مواطنية روح الشجاعة والاصرار على التخلص من الاستعمار وتعرض شاعرنا الى ألوان من الاضطهاد والتشريد فلم تلن قناته ولم يفتر عزمه، ومن منفاه بتركيا لم ينس الشاعر وطنه الذي هام بحبه وأخذ يردد أشعاره في الحث على مواصلة الجهاد وتمجيد بطولات مواطنيه..

ولم يكن شاعرنا يعيش في دائرة الوطنية الضيقة، بل كان يؤمن بقوميته وعروبته فكانت تهزه أبناء كفاح أخوته المناضلين في البلاد العربية..».

وأظن أن أسمى ما يصبو اليه فنان هو أن يكون في حياته وفي انتاجه الفني مشعلا يبدد الظلام من حول مواطنيه وينير لهم الطريق الى حيث يتحقق للوطن العزة والكرامة الوطنية والاستقلال وللشعب الحياة الطيبة الكريمة.

* * *

عبد المجيد عرفة

في ذكرى أبي تمام الطائي

القيت في المركز الثقافي في الصنمين احتفاءً بذكرى الشاعر أبي تمام بتاريخ ١٩٩٧/٦/٦

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... فهل نكذّبه في الشعر والخطب؟
صُفنا القوافي له غمداً وقد رَطُبتْ ... ويصدأ السيف في المستوطن الرطب
وقد يثلّمه ضرب السيوف وقد ... ينقدُّ. لكنه يسمو عن الجرب
لا يجمُلُ السيف في وشيٍ ولا حُلَلٍ ... وليس يُغري اذا ما صيغ من ذهب
فالمشرقيُّ الذي اسمرَّتْ صفائحه ... ولاح مثلَ اللمى في مبسم العُرُبِ
ودقَّ في حدِّهِ حتى لتحسبُه ... حداً، يفرّق بين الجدِّ واللعب

عُذري إليكَ أبا تمّام جئتُ الى ... رحابك اليوم أشفى القلب من وصب
تركتُ في جاسمٍ سيفي وملحمتي ... علَّ (الحماسه) بالعدوى تؤثر بي
فتبرىء النفس من ذليّ ومن عللي ... وما توارثته من سُبّةِ العرب
ناموا على الضيم لا وخزٌ يحرّكهم ... ولا استغاثةُ مكلومٍ ومنتحب
ولا الاهانةُ هزّت من كرامتهم ... عرقاً. كأنّ عروق العرب من خشب
تناهبتهم يَدُ الأحقاد راعفةً ... ومزّقتهم بفأس الغيِّ والكذب
باسم السلام وبالتطبيع قد نفروا ... يهرولون على درب من الريَب
يكابرون على الاذلال في قحةٍ ... ويصنعون انتصاراتٍ من الهرب
أضنتهمو حرب منْ داسوا كرامتهم ... فاستسلموا وسعوا للسلم عن تعب
وحربُ داحس والغبراء ما برحت ... تحكي مساوئهم في القتل والسلب
فأربعين خريفاً في الوغي عكفوا ... يقاتلون أولي الأرحام والنسب
جُلفٌ غلاظٌ على إخوانهم، صُبُرٌ ... على الإهانة من باغٍ ومغتصب
والدهر يطوي ولا يمحو صحائفه ... ما اسودَّ وابيضَّ منها غيرُ مُحتَجَب
كأنه عاد بالأيام ترجعنا ... الى (البسوس) وارثٍ من أبي لهب
وأبشعُ الحرب حربُ الأهل ان لبستْ ... بُرداً من الحقد، أو ثوباً من الكُرَبِ
وقد زكا نارها الأعداء توقدها ... بالشك والحقد والغايات والذهب

يا أمتي وبقلبي ألفُ لائمةٍ — لو كان يُشفى كليمُ الذلِّ بالعتب
لكنَّ جُرحكِ جرحٌ مزمنٌ نتنٌ — وليس يَشفيه إلا الكيُّ باللهب
فما القوافي التي قد صُغتُها سُبُلاً — الى التشفيّ. ولا بالمقوَلِ الذَّرب
لكنها البلسمُ الشافي وقد حملت — في متنها الحُبَّ من قلبي ومن عصبي
وغضبةُ الحقِّ بُرْءٌ للعليل وقد — أرسلتها حين فاض الكيلُ من غضبي
فلا تلومي فتىً للعرب منتسباً — اذا قسا قولُه ذوداً عن النسب

يا أمتي وبقدسي صوتُ هاتفةٍ — وما بمعتصمٍ أصغى الى الطلب
قد واعدوها بآمالٍ مزوّقةٍ — في الصيف عند نضوج التين والعنب
وغاب صيفٌ. وصيفٌ. ثم أعقبه — صيفٌ. كأن فصول الصيف في حُجُب
ولم ترَ العين صيفاً بعد أن ألفت — فصل الربيع. وأيكٍ ناضرٍ أشب
تُنسي الملاحةُ وعدَ المترفين فلا — همٌّ يؤرقهم في مجلس الطرب
خمسون عاماً واسرائيل تعزف من — مزمار داوود لحن الموت والنُّوَب
ورنّحتنا سُكارى من طِلى ألمٍ — وأسكنتنا جحور الخلد من رُعُب
وشتت شملنا في طُعمِ مطمعنا — فكلنا الرأس، والكرسيُّ كالذنب
يا يوم وقعةِ عمّورية انصرفت — عنكَ الرؤى، وسعى أهلوك للنشب
باعوكَ في زمنٍ أصفى الولاةُ به — لمن يُنجّمُ في الأفلاك والشهب
ما عُدْتَ لو لم يُفنّدْ إفكهم بطلٌ — رأى الحقيقة في إشراقة القُضُب
وقال لا. لدعاةِ السلم حين مضوا — يراوغون بسلم القهر والكذب
وهبَّ من جنباتِ الشام معتصماً — بالله والشعب والتاريخ والحسب
فالسلمُ سلمُ شعوبٍ لا يقرره — مَلْكٌ ولا حاكمٌ في برجه الذهبي
وليس يُفرضُ بالارهاب من دولٍ — مالت عن الحقّ والأخلاق والأدب
كالت بميزانها ظلماً كما رغبتْ — ولم يحركْ بها الانصافُ من عصب
وأمّة العرب في نومٍ وفي وجلٍ — كأنها عزفت عن أيِّ مُطّلب
يطوف في أرضها (غيلان) مكتئباً — تصبّ دمع الأسى في ربعها الحزب
فأين شعرُ أبي تمام يوقظها — بصرخةٍ عصفت من سالف الحقب
وأين معتصمٌ يحمي كرامتها — ويستردُّ لها ما ضاع من سلب
وليس إلاّك يا ابن الشام من بطلٍ — يقود مركبَنا في بحره اللجب
وليس إلاّك يُحيي ذكر معتصمٍ — لبى النداء بقلبٍ صادقٍ وأبي
كذا يعيد لنا التاريخ قصته — مع الفحول وما في الدهر من عجب

محمد منذر لطفي

وعادت .. شهرزاد

مُرّى بجدب العمر .. نيسانا ... واسقي فؤادي الحبَّ.. هَتّانا
حسناء.. يا أغلى رؤى عبرتْ ... دربي.. فماج الدربُ نشوانا
سبحان من أعطاكِ.. فاتنتي ... كنز الصّبا الفتّان.. سُبحانا
ستّون مرّت.. والهوى قدري ... والغيدُ ألواناً.. وألوانا
سِتّون.. لكن كلُّها انطفأت ... لما تجلّى بدرُكِ الآنا..!

الزهر أنتِ.. وأنتِ طلعتُهُ ... والحبُّ أنتِ .. وأنتِ «لَيْلانا»
ماذا أقول..؟ وقد أدرتِ على ... ظمأ الفؤاد الحسنَ رَيّانا..!
وسقيتني منه.. على مهلٍ ... كأساً مُعَطَّرةً.. وألحانا
«ليلى» .. وأنت مواسمٌ غمرتْ ... فأحالت الصحراءَ.. بُستانا
لا كانَ يومٌ.. لا أراكِ به ... لكان يا «ليلايَ» لا كانا

إنّ العيون الخضر.. واحتها ... قد صيَّرَتني اليومَ .. ولهانا
هاتي كؤوس الحبِّ مترعة ... حتى أظلَّ العمر سكرانا
أشرقتِ في ليل الهوى.. قمراً ... ما كان أغلاهُ .. وأغلانا..!
هذي كنوزُ الحسن .. عاريةٌ ... أفدي كنوز الحسن .. عريانا
لا تَحجُبيهِ.. فأنتِ عاشقةٌ ... إنّ الذي أضناكِ .. أضنانا

حسناءُ.. يا أغلى هوىً ورؤىً ... ظلّي بدنيا العشق .. أفنانا
مازال قلبي .. في توهُّجِهِ ... مازال روضُ الحبِّ.. نديانا
شعري وشعرُكِ.. في الهوى عزفا ... لحناً.. فهامت فيه روحانا
لحناً كأنفاس الربيع شذاً ... كالنبع.. كالأضواء.. جذلانا

هاتي يديك نطرْ الى جزر ... فيها ملاك الحب حيّانا
قد عشتُ حبُّك.. في تألُقهِ ... زهراً.. ودالية.. ورمّانا
فيه اكتشفتُ روائعي.. قممي ... وله غزلتُ الشعر.. فتّانا
هذا فؤادي ظامئٌ لهفاً ... لا تتركيه اليوم.. ظمآنا
لا تعجبي.. إني على ظمأي ... قد عشتُ هذا الحب.. طوفانا
لا تصرفي كأس الهوى .. فأنا ... أحيا بكأس العشق.. إنسانا

يا «شهرزاد» الأمس.. والآنا ... قُصّي على الدنيا «حكايانا»
نَيْسانُ عاد.. بكل فتنته ... عطراً وأنساماً.. وألحانا
خمسٌ وعشرون انقضت.. فغدت ... فوق الجبين السحر.. تيجانا
الله.. ما أندى خمائلنا..! ... الله.. ما أحلى خُمَيْسانا..!
هذا يراعي.. خافقي.. نَغَمي ... أضحتْ.. لسِفر هواكِ.. عنوانا

«ليلايَ».. أنتِ الحسنُ.. أروعُهُ ... والحسنُ نَهواهُ .. ويَهوانا
حيناً غرامُكِ عاصفٌ.. نَزِقٌ ... لكنّهُ .. كالطّلِّ.. أحيانا
أبحرتُ.. من عينيكِ.. في لُجَجٍ ... وأنا الذي مازلتُ رُبّانا
ومضى شراعي.. في مسيرته ... يرتادُ آفاقاً .. وأكوانا
حتى طلعت.. فكنتِ لؤلؤةَ ... البحر أهداها.. ونادانا
هذي العوالمُ .. بِتُّ أعرفُها ... بحراً.. وأنهاراً.. وشطآنا
هذي المرافئُ.. رحت أسكُنُها ... أحبب بها جُزُراً.. وخُلجانا
يا وردةً بيضاءَ .. فاتنةً ... بالعطر والأنداء.. تلقانا
سيظلُّ حُبُّكِ مُشرقاً أبداً ... فالصدقُ من أسمى سجايانا
لولا ربيعُ الحب .. لولانا ... ما رفَّ لحنُ الشعر.. لولانا
تبقى .. على الأيام.. أغُنيةً ... فيها شدا بالحب قلبانا
عودي لبستان الهوى ألقاً ... حتى يُنَوِّرَ .. مثلما كانا
أنتِ الهوى والشعر.. يا قَدَري ... إنَّ الذي سوّاكِ .. سَوّانا

وَفاءٌ بوفاء

في رثاء المغفور له الصديق المرحوم عبد الباقي نظام الدين

هل نذكر الماضي الغالي وقد رحلا
ذِكراً يجدّد منّا العزم والأملا؟
لئن ذكرناه حيناً لوعةً وأسىً
فلا لنبكي أو نستبكي الطللا
لكن طمعنا بأن نحيا مكارمه
فنجمه عن صروح المجد ما أفلا
كم من مواقف في تاريخنا حفلت
بالمكرمات وكانت للورى مثلا؟
أضحت تُراثاً نباهي في أصالته
ومنهلاً صافياً عذباً لمن نهلا
فهل ذكرنا لما ضينا فضائله
وهل قدرناه قولاً كان أم عملا؟
إن صار ذكرى فهلاّ كان موعظةً
وعبرةً لمن استغنى ومن غفلا
إنّ الزّمان وما نلقاه منه وما
يخفي من السّرّ أمرٌ حيّر العقلا
فكم نرى صوراً في الكون غامضةً
لو فكّر العقل في تفسيرها ذهلا
وكم تمرّ وكم مرّت بنا عبرٌ
ما كان أبلغها درساً لمن عقلا
فلا تكاد ترى في الورد رونقه
حتى تراه على أغصانه ذبلا
ولا تكاد ترى في السيف هيبته
حتى تراه على الأعواد قد حملا
جلّ المصاب وحكم الله قد نزلا
سبحان من حكمه لا يقبل الجدلا
وكلٌّ من حلّ في الدّنيا له أجلٌ
والله سبحانه قد حدّد الأجلا
ودّعته وجراح القلب نازفة
تبكي السجايا بدمع يجرح المقلا
فهو الكريم الذي عمّت مآثره
وهو الوفيُّ الذي بالوصل ما بخلا
فلم تكن يا أبا إحسان منصرفاً
عمّن أتوك لحاجاتٍ ومنشغلا
وكان بابك مفتوحاً لمن سألوا
فلم يجد سؤلهم منّاً ولا مللا

وكان همّك أن تحيا همومهم
وأن تواصلهم والبرّ من وصلا
فليتّق الله من يصغي لمنفعة
له ويصمُّ السمع إن سئلا
وفي السّياسة قالوا كنت مدرسةً
من قال ذلك ما غالى ولا انتحلا
كنت الوزير فما أغرتك منزلةٌ
ولا تعاليت في تيهٍ وفي خيلا
إنّ العظيم به تعلو مراتبه
وما بها من وضيع في الوجود علا
مثّلت شعبك أعواماً فما وهنت
منك العزيمة مهما العبء قد ثقلا
وكنت تحترم الشورى وتجعلها
شعار نهجك شقُّ الامر أم سهلا
ما كنت تخشى حراب الشرّ مشرعةً
ولم تكن خائفاً منها ولا وجلا
إن كنتُ أنسى فلا أنسى انتصاركم
للحق تحمونه من جهل من جهلا
حميتني من اذى من كان يجهلني
وقد تنمر حتى خلته ابن جلا
فكنت قدوة من يحمي المحقَّ ولو
أرغى وأزبد باغٍ واعتلى زحلا
بسطت كفّك بالإحسان مبتهلاً
قبوله وطرقت الباب مبتهلا
وكنت تطمح في عفوٍ ومغفرةٍ
فيا سعادة من في عفوه شملا
فالمرء يمضي ويبقى فعله أبداً
وإنّما المرء في دنياه ما فعلا
أنجالك الصّيد ذكرٌ طيّبٌ عطرٌ
سعدت في ذكرهم حيّاً ومرتحلا
هم غُرّةٌ في جبينٍ ناصع طمعت
به المعالي فزادتهم علاً بعلا
فانعم براحة نفس فهي منزلةٌ
لمؤمنٍ بنعيم الخلد قد رفلا
أعلى المراتب أن نحظى برحمته
فيا سعادة من في ظلها قبلا
وارقد وأنت قرير العين مغتبطٌ
ضيفاً كريماً على الرحمن قد نزلا
لو تفتدى يا أبا إحسان لا ازدحمت
مواكبٌ تتخطى خطبها الجللا
لكنّه الموت جلَّ الله مقتدراً
لا يرتضي فديةً منّا ولا بد لا
تقضي المروءة أن تروى مآثركم
مآثر المرء لا تنسى وإن رحلا
لئن مضى بعضُ مَنْ راياتُهم خفقت
بالمجد جَدَّدَ فينا حافظُ الأملا
فهو الوَفيُّ لِمَنْ أدّوا رسالتهم
يرعى المقيمَ ولا ينسى من انتقلا

حامد حسن

إلى روح الطبيب الانسان

الدكتور علي بلال

حنوت على ثرى جدث الحبيب

وبي ما بي من اللهف المذيب

وجئت مع الحنين اليك لكن

تضيق بلوعتي سعة الدروب

تقيم لك الطبيعة مهرجانا

من الشفق النديّ الى المغيب

هفيف نسائم، ومديد ظل

ودفق سنى، وشهقة عندليب

وتهدي الشمس قبلتها صباحا

اليك وقبلتين مع الغروب

وعند الليل يقلق كل نجم

حنين شبيبة وأنينُ شيب

تغادرك النسائم وهي تعبى

بما حملته من ثقل الطيوب

وحولك في الغدوّ وفي العشايا

تنهّد كل نيسان خصيب

* * *

ورثت أباك في كرم السجايا

وبرّأك الاله من العيوب

وكنت بنا - كما نهوى - رحيماً

وكنت الخصبَ في البلد الجديب

ترى في الناس - كل الناس - قربى

على شتى المذاهب والشعوب

اذا ذكر الغريب لديك يوما

تسائلنا: وما معنى الغريب

تنكّر لي غدي فطرحت نفسي

على لهب العذاب وقلت ذوبي

فجئت الي تمسح من جراحي

وتطفئ جانحي من الوجيب

وتودع قبلَتك على جبيني

وتمسح راحتيك على ندوبي

وتزرع مهجتي أملا وأبقى

من الآمال في شك مريب

وفي قسمات وجهك خلت أني

كشفت خبيئة الحدث الرهيب

حنانك: أنه قدر متاح

وهل أجدى طبيبك يا طبيبي؟؟

أرى العلم اشرأبّ الى الثريا

وأخفق عند أسرار الغيوب!

طلعت على الشباب وما تسنّى

لأملأ من غوايته جيوبي

فهل غضب الشباب وظن أني

اسأت له فعاقبني مشيبي؟؟

ولست بشاعر لولا وقوفي

على جدث اللدات ولا خطيب

سينزلك الشقاء عليه ضيفاً

اذا علقتك أوهام الاديب

فمن ذهب الاصيل يشيد صرحا

ومتكأً على الشفق الخضيب

ولكن تستبدّ بنا القوافي

اذا اكتنز البيان من اللهيب

* * *

أرى نفراً صنيعهم عجيبا

وحتى قيل أعجب من عجيب!!

وكيف وفيهم أدبٌ ودين

يرون جواز تخطئة المصيب

ولو بلغ المدى (هيُّ بن بيٍّ)

لسمّرنا على خشب الصليب

ولكني غفرت، وكل جانٍ

نعاقبه بغفران الذنوب

* * *

عبرت على ندى ابي حسام

وما يوحي الكئيب الى الكئيب

اطوف به مع النفر الحزانى

وتبصرني النجوم فتقتدي بي

خبا اللألأ، وانطوت الأماني

ونام اللحن في الوتر الطروب

* * *

رثاء فقيد

الأربعينية للعميد كريم الخصال الدكتور المرحوم (علي بلال)

ماضٍ تجشمني أيامها التعبا ... وأحتسي الهمَّ والأوصاب والعطبا
أمضي أجر على جدبائها حزني ... وأجتني الشوكَ من دنيايَ والوصبا
نحن المساكين لا ندري غوائلَها ... نغدو نُسام بها الضراء والحَرَبا
شروى الدراويش نحياها على وجلٍ ... عسى تُسيغ لنا الإدرار والحلَبا
والدهر يسطو وحد السيف شِفرته ... حتى اذا ما أمِنَّا شره شطبا
كم رُحنا نسعى الى حتفٍ يبادرنا ... من حيث كنا أردنا الغُنْم والكَسَبَا
ما أعجب الدهر تغشانا مغارمه ... ونلتقي الغم في ذَرواه والكَرَبا

أخي عليَّ حباكَ الله جنته ... واستمطر الحبُّ واستقى لكَ السُّحبا
هل تدري بعد الفراق المرُّ لَوعتنا ... وكم لقينا على ترحالكَ العجبا
والغصةُ البكر في الأبناء تحزبهم ... وحشرجاتٌ تهدُّ الروح والعصبا
فالأهل والصحب ما نامت لهم مقلٌ ... وطيفك المشتهى ما فارق الهدبا
طيفٌ تماوج في أبهى محاسنه ... وقد تطرَّز بالإيمان وانتقبا
تبكيك منا الصدور الطافحاتُ هوىً ... والدمع كالجمر هلَّ الدمع وانسكبا
هلّي عيوني على الأحباب في بلدي ... يا طيبهم محتداً يا طيبهم نسبا

بعض الأنام شموس لا انطفاء لها ... تهمي المسرة ظلاً طيباً رطبا
جواهر حرةٌ أضحت مشاعلُها ... تنساب بدراً سنياً عسجداً ذهبا
وبعضهم حمدت أنوارهم وخَبتْ ... كأن نجمهمُ حين البزوغ خبا

من أرض غسانَ قد جئنا على ولهٍ ... والشوق ملءُ الحنايا يصطلي لهبا

من أذرعات ومن حورانَ من طفسٍ / من آل كَيْوان هلّ الركب وانسربا
إلى السواحلِ من طرطوسَ يا بلدي / أسُّ الحضاراتِ فيها قد نما وربا
نشاطر الأهل والاصحاب مأتمهم / لئن تلبد خطب أو أسىً حَزَبا

أواه من غيرٍ تغشى مسارحنا / تترى تطفُّ بنا البلواء والنُّوبا
نحن المساكين في الدنيا نعاقرها / على بلاءٍ ونحسو مرُّها نُغبا
ننقاد في دربها نستاف بهجتها / حتى اذا ما روانا كاسُها نضبا
وتبتلينا دياجير تحاصرنا / فنرتجي صبحها مخضوضلاً خَضِبا
لا شيء يبهجنا فيها ويعجبنا / نظل نسعى على أدراجها طلبا
طوراً نهيم على فيحائها رغباً / وتارةً ندّري ساح الوغى رَهَبا

نحن الدراويش نحياها على أملٍ / حيناً على شبع أو مرةً سَغَبا
دنيا وتضحك منا كل آونةٍ / فانظر تلهّى بنا نغدو بها اللعبا
نلوب نمخر لجيها على بلهٍ / منا نُفتّل في ذروائها الشُّنبا
تروح تنشرنا تيهاً وتؤسرنا / كبراً فنرجو على حوماتها الغلبا
ونأمن الدهر نُسقى من سلافته / نَزْراً ونُتبع في تطوافنا سببا
وتحتوينا مقادير تنزُّ بنا / مواجعاً تُمطر الأرزاء والتعبا
هذا هوالعيش تعرونا مكائدُه / فندّريها نواري ظهرنا هربا

يا بارق الخُلد ما أزكى معاطرهُ / من عاتق النور شامَ الخُلْد وارتقبا
ما كنتَ تأمل عيشاً سرمداً أبداً / إلا وفيك الصدى قد طاف وانسكبا
صدى الخلود ضياء في ضمائرنا / في كل صوبٍ تجلّى بان وانتصبا
سر الألوهة يسري في جوانحنا / في النجم في اللج في أغوارنا وربى
هذا هو العمر فجر صبحه ألِقٌ / إمّا تأذّنَ في إشراقه غَرُبا
وذي الحياة سراب خادع ضَحِل / وظلها زائل مثل السراب هبا
فالله والقلب والتاريخ أنبأنا / عن سر مكنونها والعقل فيك نبا

تبارك المبدع الخلاق فاطرنا / تبارك الخير من نعمائه سَرَبا
ما أكرم الحب في الدنيا يؤلفُنا / على الوفاء فنجني الشهد والأربا
ونعتلي سُدةَ الفردوس نعبرها / بمنةٍ شاءها الرحمن اذ وهبا

أبا حسام مناك الله نعمته | وأمطرتك شآبيب الرضا قِربا
فطبْ جَناناً فهذا ذكركم عطر | أكرم بكم منهجاً أكرم بكم حسبا
هل نحن جئنا الى أهل ومرتبعٍ | للمكرمات نجوز الدرب والسُهبا
إنا قدمنا وطيف الحزن يسكننا | قم فانظر الصحب رام الأجر واحتسبا
رُحماك رباه وسِّع نُزْل راحلنا | والمؤمنينَ ومُنَّ العطفَ والحدبا

إنا عرفناك والأيام شاهدة | شهماً تصبُّا المزايا البيضَ والأدبا
ومهجةً عبقَتْ طيباً ومرحمةً | والفكر زان لساناً صادقاً ذربا
فأنت من أيكة طابت مغارسها | من دوحة تنسل الأقيالَ والنُّجبا
آسٍ تطب بنا الأجيال تمطرها | بفيض حبك تأسو الروح والعصبا
جئنا نوثق حباً باتَ يربطنا | بأهلنا حين نقضي واجباً وجبا
وحسبنا الرمز اذ أعطى محبته | حين أصطفاك من الأسراب وانتجبا
كأن فينا ابن سينا عاد منطلقاً | من الإسار يجوز الغيب والحجبا
لقد قضيتَ شهيداً في حمى وطنٍ | أحببتَهُ وقضى الأترابُ والقربا
يا طيفَ باسل ها في البال تعبرهُ | شوقاً تَجذَّر في الأحناء وانسكبا
يا معشر العصبة الأبرار في وطني | لقد غدوتم رموزاً قمة قببا
فالعبقريةُ مازالت تضوع بنا | كواكباً فانظرِ الأقمار والشهبا

يا سامر الحي هل تدري مواجعنا | فالجرح فينا أقضَّ القلب والحقبا
لقد دهتنا أحابيلٌ تمزقنا | وغاب عنا شعاع الحب واحتجبا
إنَّا لمن أمةٍ أحنى الزمان لها | هاماً وكنَّا العصبةَ العربا
واليوم بتنا وأهواءٌ تباعدنا | مثل اليتامى على بوابةِ الغربا
حتَّامَ نبقى على الأيام في عَمهٍ | نحكِّمُ الفُرقة الشوهاء والجُنبا

ألم نكن سادة الدنيا على قَصَدٍ | من السَّواء وكنا السُّمر والقُضُبا
فلنجعلِ الحب فينا قاضياً حكماً | ولنجمع العزم سيفاً لهذماً وظُبى
من شاء للأمة الشماء عزتها | فليجعل الوحدة العصما له نسبا
ولينهل النخوةَ العرباء يشربها | من كاس حافظ إمَّا عَلَّ أو شربا
من كاس حطين واليرموك نشرعها | سيفاً نحوز به الفردوس والقَصَبا
عذراً اذا جاوز التبيانُ ساحته | أو طوَّح السيف في تجواله ونبا
وليرحم الله موتانا وراحلنا | وليجعل الحب فينا مونقاً خَصِبا

مروة حلاوة

حواء .. والحزن العتيق

- ١ -

لكَ الله يا عاشقَ الحسنِ..
هل تستطيعُ الفراقَ؟
أجبني..
فإني لكَ الواحةُ المُشتهاةُ التي يضحكُ الماءُ فيها..
ويزهو النخيلْ
وأنتَ لي النبعُ والزهرُ .. والنجمُ والبدرُ..
أنتَ البساتينُ .. أنتَ الخميلْ
تُرى كيف راح البعادُ يخطُّ ويرسمُ في مُقلتيكَ طُيوفَ الرحيلْ..؟
وكيف مضتْ عرباتُ النوى تَقطعُ الطُرُقاتِ..؟
فضعنا.. وضاع السَّبيلْ
وماذا تُراني أقولُ..؟
وكلُّ الشهور استحالتْ ربيعاً بقربكَ.. كلُّ الفصولْ..!
أأغلقُ بابي أمام الربيع الجميلْ..؟
أأغلقُ شُبَّاكَ عمري .. لتغدو الحياةُ جحيماً..
فيبكي الصباحُ صبايَ.. ويبكي الأصيلْ..!
أنا لنْ أغَلِّقَ شُبَّاكيَ اليومَ .. لن ارتجَ البابَ..
إني أحبُّ الحياةَ .. وقلبي المُحِبُّ اليها يميلْ
وإني ساكتبُ بالشعر حُبِّي على كل غصنٍ خَضيلْ
وأنقشهُ في ضمير الزمانِ..
وأنقشهُ في ضمير المكان..
ليبقى علي الحُبُّ أسمى دليلْ
«تزول الحياةُ.. وشمس الحياة»..
وحُبِّي لعينيكَ.. لا .. لنْ يزولْ

-٢-

سانسجُ كلَّ النخيل خباءْ
يلفُّ العشيرةَ كل مساءْ
لتعرفَ هذي العشيرةُ أنَّ النخيلَ يُحبُّ السماء
وأنَّ الحياةَ فضاءٌ فسيحٌ ..
وأنَّ الجمالَ يُقدِّسُ هذا الفضاءْ
طُعنتُ من الظهر يوماً..
ولستُ أحسُّ . فأينَ الدماء..؟
أتخطفُ حتى عروقي..
وأفنى..
ولا سقف يحمي دمي.. لا غطاء..!
ظمئتُ .. تعبتُ .. ومتُّ..
فمن لي بقبرٍ.. وقطرةِ ماء..؟

ومن سوف يبكي عليَّ..؟ ..

ومن سوف يحملُ تلكَ الحقائبَ..؟

من سوف يُعلنُ أني استَعدتُ دمائي برغم الفَناء

فماذا أقولُ لهذا الشتاء؟

وهذا النخيلُ تمادى..

وأخشى وصولَ التَّمادي الى القلب .. قلب السماء

فماذا أقولُ لأني الشتاء؟

وماذا أقول وأنتَ السماءْ؟

ـ٣ـ

أنا الشعرُ .. والشعرُ أنتَ..

فلا توقظِ الحزنَ في بُحَّةِ النَّايِ..

في الأغنيات العذابْ

ولا تنسرح في الضبابْ

ولا ترشفِ الشَّهدَ من روض ذاكَ السَّراب

أنا الشعرُ ..والشعرُ أنتَ..

ونحنُ كلانا وجودُ الوجود.. ومعنى السَّحاب

ـ٤ـ

تقول لماذا انكساري؟

وحُزني بوسع البحارِ

طقوسي جمالٌ..وحبٌّ..

وشعري صلاةُ الكنار لفجر البراري

وكلُّ حياتي حروبٌ.. وأنتَ ربيعُ انتصاري

وتسألُ فيمَ انكساري؟

ـ ٥ ـ

أنا كيفَ أمسحُ دمعَ الودادْ..؟

وبالأمس جرَّحت مني عروشَ الفُؤادْ..!

وروحي..وآهٍ لروحي..

تَلَظَّتْ وهاجتْ.. لتكبحَ حتى جُموحَ الجيادْ

وأحزانُ حَوَّاءَ فيها تَطوفُ البلادْ

فيا للفؤادِ.. ودمع الودادِ.. وكُلُّ الجياد بهذي البلاد..!

أنا كيف أركبُ هذي البوارجَ .. كيفَ..؟ ..

ومالي «بذاتِ الصَّواري» سيوفٌ.. ومالي عتادْ..!

فقد كنتُ أغفو وراءَ النجوم وبين الأسرَّة..

تحتَ الرمادْ

بُعثتُ .. ومزَّقتُ ثوبَ القُرون.. وثوبَ الحِدادْ

كسرتُ قيودَ الذَّهَبْ

صحوتُ.. فلم ألقَ أيَّ مطارٍ لأصعدَ منهُ..

فصرتُ الجناحَ يقود الرياحَ..

وصرتُ الوقودَ يُغذِّي اللَّهَبْ

سأحرقُ شوكَ الوجود.. وعظمَ اللُّعَبْ

وأصهرُ كلَّ الجليد.. وأزرعُ قمحاً..

وأمحو من الكون عصرَ اليَباسِ..

وعصرَ الحَطَبْ

فكُنْ لي صديقاً..

وغَرِّدْ صديقي..

فقد نالَ مني .. ومنكَ التعبْ

فقد نالَ مني.. ومنكَ التعبْ

فقد نالَ مني.. ومنكَ التعبْ

أنا .. والتَّحدي .. والليل

ـ ١ ـ

وحدي أنا.. ياليلُ .. وحدي ضَيَّعتُ في الأوهام رُشدي
أرعى النجوم.. وأشتكي للبدر أحزاني.. وسُهدي
وأرى شواطىء للصباح.. تغيبُ في جزرٍ.. ومَدٌ
وأرى حدائقَ .. غير أني لا أرى فيهنَّ وَرْدي
أينَ الطيوبُ..؟.. وأينَ أعراسُ الضياء تَزورُ مَهدي..؟
غابا.. فلا عطرٌ يَضوعُ.. ولا سَناً وضَّاءً يهدي..!

ـ ٢ ـ

يا ليلُ .. يا ليلَ الحَزانى.. كيفَ حالُ الدار بَعدي..؟
ماذا أقولُ..؟.. وإنَّ منْ أرعى.. يَظلُّ يخونُ عهدي
فأسيرُ في درب الكآبةِ .. من رُؤى سهلٍ .. لنجدِ
إني الشَّقيَّةُ.. رُغمَ ما ألقاهُ من وردٍ.. وشهدِ
لا شيءَ يُبهجُني.. فقد ودَّعتُ أحلامي.. ومجدي

ـ ٣ ـ

لا شيءَ ينصُرني.. فقد سلَّمتُ «للطّاغوتِ» بندي[1]
يا ليلُ .. عفواً ـ إنْ شَكَوْتُ ـ فأنتَ أمطاري.. ورعدي
وأمُرُّ «بالعاصي»[2] الجميل.. فلا أرى في الماء وردي[3]
هذي «النَّواعيرُ» الحِسانُ.. تَئِنُّ.. لكنْ ليس تُبدي
النهرُ يعرفني.. وأعرفهُ .. كما لو كان بُردي[4]
والزهرُ يعرفني.. وأعرفه.. كما لو كان عِقدي

والبدرُ يعرفني.. وأعرفهُ.. ويقضي الليلَ.. عندي
لكنّها ـ مادمتَ يا قلبي حزيناً ـ ليس تُجدي

ـ ٤ ـ

يا ليلُ .. رُغمَ شقاوتي رُغمَ المصائب.. والتّحدي
لنْ أستكينَ.. وإنْ توارى في الظلام المُرُّ سَعْدي
سأظلُّ أبسمُ للخطوبِ.. وقد وقفنَ اليومَ ضدي
لا .. لنْ أديرَ لكفِّ غولِ النّحسِ والأحزان خَدِّي
سأحطّمُ القيدَ اللّعينَ.. فلنْ أرى أثراً لقيدي
فلقد عرفتُ ـ على المدى ـ معنى الشجاعة.. والتّصدِّي
ولقد أجَدتُ ـ على المدى ـ صنع البُطولةِ.. والتّحدي

هوامش

١ ـ البند اي العلم .. او الراية.
٢ ـ إشارة الى نهر «العاصي» الذي يمر بمدينة «حماه» بلد الشاعرة.
٣ ـ مورد الماء.
٤ ـ البرد هو الثوب .. وجمعه أبراد.

العشاء الصعب

بقلم:
مصعب عدنان اسماعيل

ناداها زوجها من داخل الشرفة، كانت تجهز له فطوره، تركت ابريق الشاي على النار واسرعت إليه، كان مكفهراً يملأ الغيم وجهه، زررت سترة منامتها وأمسكت عن التنفس قال لها:
ـ اسمعي، سيأتي أبناء العم اليوم، وسيتعشون لدينا!.
قالها بلهجة من لا يعنيه من الأمر شيء، ثم أدار لها ظهره واستمر في نفث دخان سيجارته في وجه الشارع.
عندما عادت كان الماء يغلي، أتمت صنع فطوره، وحملته اليه. نظر إليها مغضباً. قال: لن آكل!.
وجمت. ظن أنها لم تسمعه. رفع صوته أعلى: قلت لك لن آكل!.
ـ لماذا لن تأكل، هل يزعجك شيء؟
ـ أجل، أنت.
ـ أنا! كيفَ أنا؟
ـ أخشى أن تخجليني أمام أبناء العم.
ـ كيف، هل كنت أخجلك حين تزوجتني؟
ـ لا. لأنني كنت أحبك.
ـ هذا يعني أنك لم تعد تحبني الآن؟
ـ بلى. لكن أبناء العم مهمون جداً لي. إنهم أبناء عمي كما تعرفين!
ـ فقط؟
ـ فقط. لكن اسمعي. بالحقيقة أريد أن أطلب اليهم خدمة لي. إنهم قادرون. ثم ماذا يعنيك أنت إن كانوا مهمين لي لأنهم أبناء عمي أم لأنَني احتاجهم؟.
قتل الحزن كل رغبة في نفسها لمتابعة الحوار. امتلأ وجهها قهراً من «الرجل» الذي فيه. لكنها ظلت واقفة. فأثارته. صرخ في وجهها يصرفها عنه: البلهاء!
كان يقبض على مزهرية زجاجية أمامه، وقد تجمع كل غضب الفقراء في عينيه، فحملت طعامها، وعادت.
كانت ابنتها ذات السنتين تزدرد شيئاً ما، وكان حموها، والد زوجها، يشرب الشاي عندما دخلت، فأوقف يده في

منتصف طريقها الى فمه، كانت كنته تحمل في وجهها آلام اضطهادها، وفي شفتيها سكن حزن الجلجلة.

فتعلقت عيناه بهما. قالت: إنه الاستاذ. رفض أن يأكل وانتهرني.

وضع حموها كأس الشاي على الارض امامه، ونظر من خلال الباب الموارب قليلاً باتجاه الشرفة، وصفن. احترمت كنته حزنه فلم تضف شيئاً، وجلست على الارض قرب ابنتها بجانب موقد الكيروسين. قال حموها وهو مطبق فمه تقريباً: ماذا قال لك؟

- إن أبناء أخيك سيتعشون لدينا اليوم.

تجهم وجه الجد ثم انبسط، عبس وانبسط. تناوب العبوس والانبساط على أساريره لفترة. ما الذي دفع بأخيه ليرسل أبناءه اليه؟ لماذا لا يأتي هو ؟ عله العيد حيث يتبادل الأهل الزيارات. لكن اعيادا كثيرة مضت لم يدخل فيها بيته احد منهم. عله الدين القديم في عنق أخيه. جاع ليشبع أخوه. عرى ليكتسي. باع كل ما يملك ليوصل أخاه الى ارفع المناصب، وحين لم يعد لديه ما يبيعه استدان، وحين لمع نجم أخيه في المجتمع وأثرى نسيه مريضاً مفلساً. يتآكله العوز والفاقة. صحيح إنه غير حاقد على أخيه، وإنه ليس بحاجة الى شيء من متاع الحياة سوى رحمة الرب. ولكن ولده. أورثه همومه وفقره، وعلى حسابه ايضاً وصل عمه الى ما وصل اليه. لعل أخاه تذكر أخيراً ان له ابن اخ كان السبب في ثروته الطائلة، فجاء يرد له بعض أفضاله؟ ربما! ممكن! لماذا لا يكون هذا ممكناً؟

لم يكن في مطبخ سميحة ما يستر الوجه وزوجها الغارق في شرفته لم يقدم لها شيئاً، احست انها جندي يؤمر بالهجوم دون سلاح. إنه تحدٍ من نوع جديد، إثبات للوجود بصيغة اخرى. وضع امرأة نصف متعلمة قديم أو جديد، ولا حدَّ وسط.

من حق زوجها أن يكون له أصدقاء وأقارب. ومن حقه ان يدعوهم للعشاء. كانت في أعماقها سعيدة ان يكون زوجها محاطاً بالاقارب والأصدقاء، وسيقال إنها هي التي صنعته. ليدعُهم. ليدْعُ من يشاء، فلن تدَعَ زوجها يخجل منها أمام أحد. اذ لاشيء يثير غرور المرأة كاعتراف الناس بأنها هي التي صنعت زوجها. لكن كيف؟ من أين؟ ولم تطل حيرتها، فقد صممت على الاستدانة.

أعادها قريب لها وملء عينيها دموع. ورجعت من لدن صديقة لها خائبة. وعادت من بيت الرابي وقد اصفر وجهها كالشمع، لقد ساومها على شرفها، السافل!. كان الدرس قاسياً فكفت عن الاستدانة. أصبحت سميحة اكثر تشتتاً من أي وقت مضى. شيء ما بقسوة الكاوتشوك وطعمه يقف في حلقها، إنها تختنق. ولم تك تدري أن أظافرها تنشب في جلد صدرها، فتدميه، إلا عندما أحست بشيء صلب تحت أظافرها. مدت يدها أمامها. كانت ملأى بالدم، ومن أطراف أصابعها تدلت سلسلة صدرها الذهبية تنوس في طرفها التميمة «الله» أملاً منقذاً، فابتسمت، أدركت أنها انتصرت.

عادت سميحة من السوق تحمل أكياساً كثيرة كثيرة مختلفة الحجوم والأشكال، إنما كلها منتفخة. شمرت الى ما فوق الركبة وانهمكت فوراً بإعداد العشاء، تاركة ابنتها في رعاية الجدِّ الذي أخذ يهوِّم حولها أسفاً حزيناً منزعجاً. كان عليها ان تثبت جدارها الإنسانية أمام زوجها وأمام الآخرين. تجعله يشعر بالفخر بها، لا أن يخجل منها كامرأة هي للأمية والجهل اقرب.

كانت تعمل باتقان بالغ وعناية فائقة، فهذا العشاء امتحان لها، وصممت على النجاح فيه، فكانت تحجم كثيراً قبل اصدار رضاها النهائي عن هذا العمل أو ذاك. تعود لتتذوق الأصناف المطبوخة أكثر من مرة، لتتأكد من جودتها ودرجة اتقانها، قبل ان تضع اللمسات الاخيرة عليها، وشرحها على المائدة.

لم تنته من عملها الا في ساعة

متأخرة عند الغروب. سرقت لنفسها بضع دقائق، غسلت فيها وجهها ، ولبست فستاناً طويلاً يغطي الكاحلين، ورشت بعض مسحوق البودرة على وجهها وأعلي صدرها، ثم رشقت شعرها بزهرة فل قطفتها من «تنكة» الشرفة. اذ عليها ان تكون انيقة امام الضيوف.

كان زوجها في غرفة الاستقبال، يرصد الطريق من النافذة، لم يدخل المطبخ، ولا مرة واحدة، لم يسألها ماذا أعدّت، ولا ماذا فعلت؟ بدا عليه ان دوره انتهى بمجرد ابلاغها أن اناساً ما سيتعشون لديه!. وهي، امرزته، لم تكن تنتظر منه أكثر. لقد عوّدها ألا يهتم لشيء خارج ذاته أبداً.

بعد مغيب الشمس بقليل جاء الضيوف، أبناء العم. شابان وفتاة. مصقولون جداً كحرير منشّى مرّت فوقه مكواة حامية. مشعّون كانعكاس أشعة الشمس على صفحة بركة صافية. مصنّعون بإتقان كدمى خرجت لتوها من المعمل. لماذا لا يكونون مصقولين مشعين. أليسوا أبناء النعمة؟ أسرع زوجها يستقبلهم على الباب. كان قد صقل نفسه أيضاً ، واحداً منهم. وكان الجد ينظر اليهم من باب غرفته الموارب بفضول وارتياب. شدما تبدو آثار النعمة ظاهرة عليهم. ليتهم يعلمون أنه هو سبب نعمتهم هذه !.

كان العشاء سخياً. بدت سميحة كريمة جداً. كبر جوازية حقيقية، فأطعمت حماها من العشاء الخاص، وأكلت هي، حملت صحوناً كثيرة الى داخل غرفة الاستقبال، اذ لا يوجد في بيتها المتواضع غرفة خاصة بالطعام، وزجاجات وأقداحاً وكؤوساً كبيرة، وقطع ثلج، وسلال فاكهة، وعلب حلويات، ولم تنس أن تترك لحميها زجاجة عرق كاملة، فنظر اليها بامتنان كبير.

كانت دائبة الحركة كنحلة في حديقة، لا تستقر في مكان. موجودة وغائبة في غرفة الاستقبال، كسنونوة تبني عشها. مستعدة لخدمة الجميع. إنهم ضيوف زوجها. برجوازيون. وكانت فخورة بذلك فقبل اليوم لم يكن يزورهم، عدا جباة الكهرباء والماء والهاتف، غير نفر قليل من عجائز الحي، أصدقاء حميها. هرموا جداً. فكأنما نسيهم الموت. يدخلون غرفة الجد. يثرثرون عن الطقس، ويستفسرون عن الموت، ثم ما يلبثون ان يخرجوا ليناموا.

أما ضيوف زوجها اليوم، إنهم مختلفون جداً، برجوازيون حقيقيون، لا تحتاج الى لمسهم لتعرف مدى غناهم وجاههم إضافة الى كونهم من لحم زوجها ودمه. فأحست بالغرور يملؤها. اذ ليس لكل امرأة في الحي زوج له أقرباء من هذا النوع الرفيع.

لاحظ الجد أن كنته كانت دائمة الابتسام. لكن البريق المعهود في عينيها كان منطفئاً خابياً. ففهم إنها كانت في قرارة نفسها تعيسة ومتألمة. فهي كنته. يعرفها كما يعرف ابنته. فقبع في غرفته يرشف جرعات متلاحقة من العرق بحزن عميق، وقد نسي الامر الأهم. متى يسأل أبناء الاخ عن عمهم؟ وربما أنساه هذا الامر، بل شغله عنه ملاحظته ان عنق كنته كان عارياً من تميمته. لم تكن السلسلة الذهبية تطوقه. فدمعت عيناه. باعتها لتستر وجه زوجها؟ أحس بخوف كبير عليها. اذ لا ينبغي ان تسير كنته بين الناس دون تميمة فقرر أن يصنع لها واحدة من ورق المصحف، يدسها خلسة في مخدتها حيث تنام، فاطمأنت نفسه، وعاد يهوّم في أبناء أخيه.

لم يقدّمها زوجها لأولاد عمه. لم يقل لهم مزهواً: هذه هي امرأتي، سميحة، تجيد إدارة الاسرة، تحسن فنون الطهي، ولم يقل لهم انها ربة بيت عظيمة. ترى الشمس بشكل مختلف، وتشم العطر كما لا يشمه الناس، وتسمع الموسيقى بشكل مختلف. ولم يكترث بتعريفها عليهم: هذا ابن عمي.. هذه ابنة عمي.. هذا .. وإن عرفت، أخيراً، من خلال أحاديثهم أن أحد الشابين يعمل مضارباً، والآخر طبيباً، والفتاة

أخته، وفي كل مرة كان يعطيها القسم الأفضل. سيحكون قصصاً لم يمت فيها الراقصون في الاعراس، ولم تحمل العروس فيها الى بيت زوجها خلف جنازة.

فكرت سميحة انها تستطيع مشاركتهم الحديث عن الحب. ستنتهز الفرصة، وستروي لهم قصص حب رائعة.

ستقول: إن أميراً نسيت اسمه. عله مضر بن نزار أو قحطان بن يعرب، لا يهم، قطع سلاسل جبال سبعة بحثاً عن يتيم يؤويه، أو جائع يطعمه، أو عائل يغنيه، لكنه لم يعثر على أحد ، فعاد حزيناً، وسيطر الوجوم على حاشيته، وفي طريق عودته الخائبة وجد امرأة تطبخ الحصى لتنيم أطفالها الجياع بالأحلام، اذ قُتل زوجها في احدى معارك الله المشرفة. فحمل اليها الامير الدقيق والسمن على ظهره، وظل يطبخ ويطعم الصغار بيديه حتى شبعوا وناموا. غير أبه بالدخان الذي يتخلل لحيته، فانطلق الى مضاربه فرحاً سعيداً. وستقول لهم: إن أبطالاً وطنيين استبد بهم العطش في احد المعارك، وليس معهم سوى شربة ماء واحدة. فكل آثر بها رفيقه، فماتوا جميعهم عطشاً وبقيت شربة الماء وحدها لم تمس، شاهدة على الرفاقية السامية والتضحية المثلى والحب الذي لا حدود له.

كانت سميحة متأكدة انها ستبهر زوجها بهذه الحكايا. سيرفع بها رأسه عالياً. وكانت تتصور نظرات الدهشة في عينيه الباردتين، من أين تعلمت هذا؟ وستشرح له فيما بعد انها تعلمته من الجد طبعاً.

ومضى في ذهنها خاطر مفاجيء: كيف تستطيع قول كل هذا؟ هل يستطيع لسانها التعبير عنه دون تلعثم؟ كم ستبدو مضحكة إن هي تعثرت أو تلجلجت؟.

لكن الضيوف، لدهشتها، لم يتحدثوا عن الحب. كانوا يتحدثون عن الكراهية. الموت. الحقد. وكانوا يستخدمون ألفاظاً فجة رديئة متعجرفة للتعبير عن كراهيتهم. فروى المضارب عن صفقة ربح فيها الملايين في أقل من خمس دقائق: كان الرجل «حماراً» وافق على العرض فوراً، وكان الرجل الآخر اكثر «حمرنة» فوافق على الشراء. وانتهت الصفقة بالربح الوفير. وحكى من ظنته طبيباً عن عذاباته المضنية يومياً لاضطراره لتنظيف عيادته من رائحة الزبل واللبن المحمض التي يحملها المرضى في ثيابهم، ثم يتركونها عالقة في عيادته وينصرفون عندما يأخذون أدويتهم.

كانت سميحة تحس بندف الثلج في فقرات ظهرها: ما أرخص الانسان لدى هؤلاء البرجوازيين المصقولين! ما الذي جعله رخيصاً هكذا؟ أيها الجد ألا تسعفني بالجواب؟

وتكلمت الفتاة عن حظها العاثر، بعد ان عجزت عن العثور على العطور الباريسية في وطنها، فهي مضطرة لاستخدام انواع أردأ. صحيح انها لا تعمل في التدريس لأجل المال، بل لقضاء الوقت، فوالدها الثري يعطيها أضعاف راتبها من الدولة، ولذلك ماذا ستفعل؟ تغيب عن المدرسة أياماً وتحضر قليلاً، واذا ما قصّر التلاميذ فليس الذنب ذنبها. ليجدوا لأنفسهم مدرساً خصوصياً او يتركوا المدرسة نهائياً. إنها تعبة. ضجرة. إنها تعيش حياة السأم مع هذه الحشرات القذرة ضمن جدران المدرسة.

لم تصدق سميحة ما تسمع أذناها، فتحسست شعرها الطويل خلسة، ثم شمت يدها، فاطمأنت الى ان رائحة زهرة الفل المدسوسة هناك ما تزال عابقة بالعطر. ادركت ان ضيوف زوجها يختلفون كثيراً عن ضيوف الجد. فلو قُيِض لأولئك العجائز من يكويهم ويصقلهم لما كان هناك فرق على الاطلاق في المظهر، لكنهم يختلفون عنهم «في الداخل» فهؤلاء فارغون الا من انفسهم، ولا وجود للهم الإنساني في داخلهم، فهم غرباء عن الناس بعكس أولئك العجائز. غربة الابيض والاسود. وسيبقى الابيض أبيض أبداً، وسيبقى الاسود أسود أبداً.

فلعنت نفسها لأنها جلست، وودت لو تستطيع الفرار الى غرفة الجد لتخبره ان الإنسان لا وجود له في أعماق أبناء اخيه، فمذ حذفوا من لغتهم كل مفردات السلام والتسامح والأثرة وأفكار الذات فقدوا

إنسانيتهم، فكفوا عن أن يكونوا بشراً. فلا شك أن شيئاً ما يرقد في أعماق هؤلاء الأبناء. شيئاً ما ورثوه عن أبيهم يحاصر الفرح لديهم، فلا يسمح لهم بإشاعته على أحد. ولايقبل منهم أية مساومة أو تنازل للاعتراف بفضل الجد على أبيهم. فهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً غير ان يبهرجوا انفسهم. ينمقوا لغتهم، ويصقلوا خارجهم، حاسبين بذلك انهم يغزون العالم، ولا يدركون أنهم مجرد قبور رخامية، خارجها المرمر وداخلها الجيف النتنة.

اكتشف زوج سميحة ان عيني امرأته ملئتان بالغضب والقهر، فخاف منها وابتعد بإليتيه الى الخلف في مقعده. وجدت نفسها تسبح في بحر من خيبة الامل. علّق احد الشابين بتهكم، وقد اكتشف ان وجودها طفيلي بينهم فأراد ان يسخر منها علها تمضي: هل اطلعت السيدة على شيء من التاريخ؟

جاءها صوته كفحيح أفعى. طنين صلب وش في اذنيها. انها لحظة مواجهة خطيرة. نظرت الى زوجها، فكانت عيناه باردتين كالثلج، ففهمت انه شامت بها، وإن عليها ان تجيب على السؤال او تنسحب. استنجدت بالفتاة فارتسمت ابتسامة لامعنى لها على شفتيها المدهونتين بالروج. وقرأت في عيني الشاب الآخر أنه يسخر منها.

في هذه اللحظة ظهر الجد واقفاً على باب غرفته، حاملاً طفلتها بين ذراعيه، وفوق رأسه انتصب صف من الكتب العتيقة: تغريبة بني هلال. سيرة عنترة. سيف بن ذي يزن. لم يبد عليه أنه يعير اهتماماً لبني أخيه. بل هو لا يراهم أبداً. كان في عينيه نظرات تشجيع لاهبة لكنته: لا تخافي. لا تخافي. لا تخافي. نظرت الى الفتى بتحد. قالت: أجل اعرف التاريخ. فرض العبد عنترة وطبقته جدارة انتمائهم الى طبقة السادة بحد السيف. وقاتل الشعب كله مع سيف بن ذي يزن حتى تحرر الوطن. وطهر فرسان بني هلال الارض العربية من فجور حكامها البرجوازيين بالمحبة والانسانية. و.. كان الكلام يتدفق من شفتيها صادراً كالسيل، وقد استبد بها انفعال المجنون.

كانت نظراتها تسحق الفتى، فانكمش في مقعده. تكلمت عن التحدي الوطني. الوطن الذي عاش الأمية والسخرة والضرب ويتطلع الى غد واعد، بلا جوع ولا قهر ولا عبودية، بعيداً عن حذلقة البرجوازية البغيضة، تحدثت عن الأثرة والتضحية والبذل مقابل الخسة والدناءة وقلة الوفاء. وحين هدأت قليلاً قالت للفتى: إنك لست الفتى الذي يعتمد عليه من أجل ذلك، على كل حال.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ لأنك بكل بساطة لا تنتمي الى التاريخ الذي تتحدث عنه، لأن كثيراً من الروائح الكريهة، أكثر مما تتصور بكثير، المنبعثة من عيادتك ستملؤك قيئاً، فتتخبط فيما يجب عليك عمله، وهذا لا يفيد التاريخ بشيء.

لاحظ الجميع ارتباك الفتى، فقد جمدت ابتسامته على شفتيه، وانطفأ الفرح في عينيه، فأصبح وجهه المترجرج كوجه الأبله. حاولت الفتاة نجدته. قالت: إن أخي على حق. أقصد، هو لم يشأ الحديث عن تاريخ الشعب، بل كان يرمي لمعرفة مَن من سيدات التاريخ قلّدت السيدة في زينتها؟ ألا ترون معي أن الخضرة تسكن في عينيها أكثر من الطبيعي، فلو لم تقلد أحداً ما لفقدت خضرة عينيها قيمتها.

شمت سميحة رائحة السخرية اللاذعة في لهجتها، وفي تعابير وجهها، فهبت تنقذ نفسها، قالت: هل تعتقدين ان قبول ما وهبت الطبيعة حماقة، بلا قيمة، حتى يتم تقليدها بطريقة ما؟ ألا ترين معي ان الاحتيال على جمال الطبيعة يفسده. يبقى زائفاً. يتقشر كلما تعرض للاختبار؟ هل تجربين ذلك بنفسك الآن؟

أدركت الفتاة أن سميحة تدينها. فتجمعت كل حرارة خجلها في وجهها، وأخذت زينتها تذوب هناك بخطوط شبه مستقيمة نحو ذقنها، وتخيلت التشويه المريع الذي لحق تقاطيعها، فأدارت وجهها الى الحائط وفتحت حقيبتها.

أدركت سميحة انها كانت قاسية مع اقرباء زوجها. على الاقل كان يجب ان تحترم كونهم ابناء اخ حميها الذي تحبه وتحترمه. فندمت وتهيأت للاعتذار.

ابتسم الطبيب في وجهها ابتسامة ذات مغزى. كان يجاملها ليدرأ عن نفسه سلاطة لسانها، وقرأت في عينيه نفس النظرات المتهربة لزوجها حين يحرج. فكفت عن محاولة الاعتذار وقالت تغايظه: دكتور. قل لي، اذا كانت الريح والماء يذهبان برائحة الزبل التي يخلفها المرضى في عيادتك، فكيف تنظف منها جيوبك حيث تنام مع نقودهم؟

احمر وجهه. لوى بوزه جانباً مستنجداً بزوجها الذي فهم أن الأمر اصبح مخيفاً. وان كلمات مهينة كثيرة قيلت كان لا ينبغي التفوه بها. ووجد ان امرأته تتحمل مسؤولية كل الإهانات التي لحقت بأبناء عمه لوحدها، مستغرباً، بينه وبين نفسه، من أين جاءت بهذه الأفكار؟ لكنه في قرارة نفسه كان سعيداً، فقد وجد فيها امرأة رائعة تفرض احترامها على الجميع. رغم هذا. فإن عليه ان ينقذ أبناء عمه من الموقف الحرج الذي وجدهم يتخبطون فيه، بعد أن استطاعت براعة امرأته توريطهم فيه.

قال: محملاً صوته كل ما يستطيع من المجازفة: سميحة. تستطيعين أن تقولي هذا لعجائزك، في غرفة حميك.

ادركت انه يطردها طرداً، ليدرأ عن نفسه وعن ضيوفه مزيداً من التورط، تراقصت امام عينيها جنازة عجوز لا يبكي عليها أحد. يسير خلفها عرس يطلقون فيه الزغاريد والرصاص. وتخيلت بائساً مريضاً ضحى بكل ما يملك ليبني أجنحة لأخيه يطير بها فوق الغيم. فما كان جزاء هذا المريض البائس سوى العقوق والنسيان وقلة الوفاء. فصممت ان تنتقم لكليهما، للعجوز الميت، وللمريض البائس. نظرت الى زوجها بخشونة صارمة، على الرغم من أنها ظلت تبتسم. سألت:

ـ ما عيب العجائز الذين في غرفة الجد؟ إنهم مؤمنون بما هم مخلوقون من أجله؟

سأل زوجها ساخراً: ما الذي هم مخلوقون من أجله. اذا لم يكن الفقر وحده؟

ـ لا .. ليس الفقر.. إنما الأمل الرفيع الذي يصنعونه لأنفسهم وللناس، هو الذي يبرر وجودهم، وهذا يغنيهم.

ـ الأمل؟ الأمل في ماذا؟ ان يعودوا الى الشباب ثانية؟

ـ لماذا تتحدث بهذه اللهجة؟ أنا أكرهك عندما تسخر مني.

ـ انا لا اسخر منك، أنت فقط تدافعين عن كائنات، وجودها أو عدمه سيان لاستمرار الحياة على هذه الارض. فنحن نعيش معهم او بدونهم.

ـ يا الهي. لكن كونهم بشراً يفرض حولهم احتراماً إنسانياً. ألا تشعر بالاحترام لمن يفرح للآخرين حتى الموت؟ ألا تشعر بشيء لمن يمد لك يد المساعدة؟ ستقول: بلى . وأقول: بماذا تشعر اذن حيال من يضحي بكل شيء ليبني اخاه بناء متيناً؟

ـ انا! أنا أشعر انه مجنون. على الاقل هو مخطىء. كان أبناؤه أولى بهذه التضحية الفارغة. كيف اشعر بالاحترام لمن شرّد اطفاله في سبيل وهم كاذب؟

ـ اذن. كان اولئك الابطال الذين آثروا غيرهم بشربة الماء حتى الموت مجانين وخطّاء. بل لم يكونوا ابطالاً على الاطلاق. وكان علي مجنونا حين نام في فراش محمد معرضاً نفسه للموت. بل إن كل اصحاب الرسالات كانوا مجانين ومخطئين لأنهم ضحوا بكل شيء في سبيل الإنسان.

لم يصدق زوجها أذنيه، ولم يصدق ضيوفه. وجدوا جميعاً ان ما تقوله امرأته كان كبيراً كبيراً جداً. ولم يعلموا ان الإنسان الرائع الثاوي في أعماقها هو الذي يتكلم وحده بلسانها. فشعروا بأنفسهم يتضاءلون امام عظمة الإنسان فيها. وبقدر ما كانوا يتضاءلون كانت سميحة تكبر. تكبر. حتى أحست بهم يلتصقون بالارض، نحو حذائها، وكان الجد واقفاً يسد باب غرفة الضيوف بقامته المديدة، وشعره الابيض، والطفلة مازالت بين ذراعيه، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضى عريضة غطت مساحة وجهه كله.

منمنمات من الحي الراقي

بقلم:

مها سليمان

جلست السيدة آمال وقد ظهر الغضب الشديد على وجهها وهي توجه اللوم إلى زوجها الذي يجلس على أريكة قبالتها

ـ لقد مضى ثلاث سنوات على تقاعدك وتركك للعمل وها أنت من يومها تقبع في البيت ولا تخرج إلا فيما ندر. تأتي صديقاتي لزيارتي فتجلس بينهن وتتدخل في أحاديثنا ولا تدعنا نتنفس، إن أحاديث النساء تختلف عن أحاديث الرجال لكنك لا تريد أن تفهم لقد مللت من ذلك.

ـ وأنا لا أستطيع أن أتركك هنا وأذهب في زيارة، قال بهجت بصوت خافت وهو مشفق من سماع الخادمة شجارهما:

ـ لكنك تذهبين الى الوزارة كل يوم فترين الناس وتتسلين.

أجابت باندفاع:

ـ أنا أتسلى أنت تعلم أنّي في العمل أقارع الصغير وأجامل الكبير ثم أني أكتفي في الصباح بتناول لقيمات معدودة وأبقى حتى الثانية وأنا على هذه الحال لأني لا أرغب بتناول أشياء لا أثق بنظافتها. وتقول أني أتسلى ثم هنا حين أعود أراك أمامي في كل مكان تتدخل في كل صغيرة وكبيرة أذهب إلى غرفتي لأرتاح أو أعد الملابس التي سأرتديها في اليوم التالي فأجدك مستلق ترى الأخبار في التلفاز أو تستمع إلى أغنية من الراديو. أين تريدين. أذهب وأرتاح هنا في الصالون تلفاز كبير وراديو وكل شيء ولكن لا يحلو لك إلا أن تفعل ما يزعجني. اذهب مع بعض الأصدقاء إلى المقهى أو تفقد أقاربك أليس لك أصدقاء أو أقارب لقد مللت.

كان وجه الرجل محتقناً تماماً لكنه اكتفى بأن قال:

ـ لا أحد يجبرك على الوظيفة لكن هي رغبتك حتى تقولي أنك امرأة مهمة وذات قيمة كبيرة على كل غداً حين تحالين إلى التقاعد سأرى ما الذي ستفعلينه.

ـ أنا وما الذي سأفعله على الرغم من أن المرأة مكانها البيت وهي تختلف كثيراً في هذا الأمر عن الرجل لكني أعدك

أني سأمضي وقتي في زيارة الأقارب والصديقات.

قال وكأنه تذكر أمراً:

- إن ابنتك تأخذ السيارة وتغيب بها كل النهار.

أجابت وهي تحدجه بقوة:

- أهذه حجة في رأيك..

ويبدو أنها قالت كل ما لديها فقامت لتهيء طعام اليوم التالي وهي أقل انفعالاً. لاحظت وهي تغادر الصالون الخادمة وهي تسرع بالدخول إلى المطبخ فخالجها إحساس أنها كانت تستمع إليهما. لكن لم تهتم للأمر كثيرا إذ أن المرأة أجنبية ولا تعرف إلا القليل من اللغة العربية.

كان كل شيء معد في المطبخ الخضار غسلتها الخادمة وقطعتها. اللحم، الزيت، الزبدة وليس على السيدة إلا أن تضعها في الإناء على نار الموقد. فعلت ذلك بسرعة.

كانت في الخمسين من عمرها ذات قامة طويلة تكافح باستمرار حتى تحافظ على جسد متناسق لا يرهقه الشحم واللحم وتليق به الثياب الغالية المنتقاة من أفخر بيوت الأزياء وكان لها وجه جميل ولكن غلب عليه طابع الوظيفة التي تشغلها فغدا ذا سحنة متعجرفة ولم يكن شعرها قصيراً كسائر الموظفات اللواتي في عمرها إنما كان لها شعر طويل ناعم تلفه وترفعه ببساطة وتزينه بدبابيس أنيقة متنوعة حسب كل وقت وكان زوجها يكبرها بأكثر من عشرة أعوام وهو متوسط الطول ذو صحة جيدة لكن دون بدانة وله بشرة برونزية رغم أنه لا يخرج إلى الشمس أما عيناه فصغيرتان تبدوان من خلف نظارته الطبية ذواتا لون أخضر وكان له شعر فاتح خفيف وخطه الشيب وهو أنيق دائماً سواء في ثياب الخروج أو لدى ارتدائه ملابسه المنزلية.

وقد أمضى السنوات الأخيرة مديراً لإحدى شركات القطاع العام ولما لم يجد بعد إحالته على المعاش عملاً محترماً يرضي طموحه اكتفى برعاية ماليه من عقارات بالإضافة إلى شراء أسهم في بعض الشركات الخاصة لكن هذا لم يكن يأخذ سوى القليل من وقته. بقي بعد مغادرة زوجته للصالون ماضياً مع أفكاره - هل هذه هي النهاية هل هذا هو نهاية المطاف. المستقبل الذي سعى إليه لكن ما العمل إن الفراغ يقتله وزوجته تمضي وقتاً طويلاً في الوظيفة وابنته تبقى معظم اليوم في الجامعة وحتى عندما تكون في البيت تظل في حجرتها تدرس وولده الآخر ذهب إلى بلد أجنبي للدراسة وتزوج هناك من زميلة له ولا يأتي إلا مرة كل عام. زوجته غاضبة لأنه لا يذهب إلى المقهى مثلاً. رغم علمها أن دخان السجائر هناك يقتله كأنما ترغب في موته لكن آه لو تعلم. لم تكد زوجته تعود إلى مكانها حتى سمعا الباب الخارجي يفتح أدركا أنها ابنتهما لم تلبث هذه أن دخلت الى حيث والديها. ألقت التحية فرد الإثنان وقد علقت أنظارهما بها قالت الأم وهي تنظر في الساعة المعلقة على الجدار ألا زلت إلى الآن في الجامعة لقد جاوزت الساعة الثامنة. قالت الفتاة بصوت ناعم رقيق وهي تتجه نحوهما لتقبلهما - لا لكن وجدت أن الطقس جيد اليوم فأحببت أن أمشي في السوق قليلاً.

بعد ذلك مضت إلى حجرتها بقيت أمها تنظر إليها وكأنها تريد أن تحملها في عينيها ثم تابعت البرنامج التلفزيوني الذي يشاهده زوجها. حين أغلقت شيرين خلفها باب حجرتها اختفت الإبتسامة الخفيفة المرسومة علي وجهها. وضعت حقيبتها وكتابها جانباً. جلست وأسندت مرفقيها على منضدة أمامها وأخفت وجهها بيديها. لم تكن قد بلغت العشرين بعد ورثت عن والديها أجمل مافيهما فعن أمها أخذت قامتها الجميلة وعن والدها شعره الفاتح ولون بشرته وعينيه وقد حبتها الطبيعة المزيد من الجمال فكان لها فماً وأنفاً ساحرين وكانت حين تتحدث تتكلم فقط بنصف صوتها الحقيقي فتلتهب القلوب من حولها الفتيات من شدة الغيرة والشبان من الإعجاب والحب

وكان كل من يتأمل وجهها يدرك أن لا شيء يناسب ذلك الجمال سوى هذا الصوت الناعم. بقيت جالسة على هذه الحال مدة من الزمن ثم قامت لتبديل ملابسها فقد كانت تدرك أن أمها سوف تأتي لتطمئن عليها وتدعوها الى العشاء.

صعّدت زفرة حرّى. وقفت أمام المرآة تأملت وجهها لاحظت الهالة القاتمة حول عينيها تحسستها بأصابعها وقد ازداد وجهها شحوباً ثم تأملت جسدها عادت إلى إطلاق زفرة حرى، استبدلت ملابسها كيفما اتفق. حين خرجت وجدت الخادمة تعد المائدة. كان العشاء خفيفاً كعادتهم كل ليلة. حاولت أن تأكل بشهية حتى لا تلفت نظر والديها. تتابعت أسئلة أمها:

ـ كم محاضرة كان لديك اليوم ـ مَنْ من الأساتذة لم يحضر ـ في أي ساعة غادرت المنزل حين عدت لم تكوني هنا ـ ماذا أكلت هناك. إن ذلك يؤثر على صحتك. كانت شيرين تجيب والدتها بهدوء وتنقل بين حين وآخر نظرات سريعة إلى والدها فتجده غائب مع أفكاره بعيداً عنهما. سألت نفسها ـ ما الذي يشغل فكره إنه بالكاد يتكلم معهما رغم ثقتها أنه يحبها أشد الحب. لم تكن في حالة نفسية تسمح لها بتحمل أي شيء. سألت أمها بكل تهذيب إن كانت تحتاجها في أي أمر.

ـ لا يا حبيبتي قالت الأم وهي تقبلها فمضت سريعاً واستلقت على سريرها بقيت مفتوحة العينين تفكر في صديقها والحب الذي يجمعهما منذ عام. لقد أخطأت كان عليها أن تعرفه على والديها منذ البداية فترى رأيهما فيه ويعرفان بطريقتهما سلبياته وأيجابياته. فيعيش حبهما في النور دون خوف أو عقبات لكن الآن..

تقلبت في فراشها سمعت طرقة خفية على الباب أعقبه دخول والدتها سألت بصوت خافت:

ـ هل نمت. اعتدلت شيرين في فراشها وأضاءت المصباح المجاور لسريرها وبهجة الضوء وضعت يديها على وجهها ودعكت عينيها برقة ثم قالت:

ـ هل هناك شيء يا ماما. أجابت هذه وهي تتأملها.

ـ لا لكن أجدك منذ مدة على غير ما يرام ولم يتسن لي أن أسألك فوالدك يثير أعصابي على الدوام

هزت الفتاة رأسها بالنفي:

ـ إني بخير يا ماما لا تهتمي وضعت الأم يدها على رأسها

ـ هل أنت واثقة.

ابتسمت شيرين

ـ نعم اطمئني انحنت وقبلتها برقة ثم غادرت الحجرة وهي تتمنى لها نوماً هانئاً. قبل أن تمضي إلى حجرتها عرجت على زوجها سألته بشيء من الجفاء ـ ألا ترغب في النوم. ويبدو أنه رأى ألا يزيد في إثارة غضبها فأقفل جهاز التلفاز وتبعها.

في الصباح تناولت افطاراً سريعاً. كان لديها أعباء عمل كثيرة في ذلك اليوم من بينها زيارة بعض الضيوف الأجانب للوزارة. لم تنس قبل أن تغادر المنزل إلى حيث ينتظرها السائق في سيارتها أن تطلب من الخادمة نقع كأسين من الأرز في الماء الدافىء تمام الساعة الواحدة حين أفاق بهجت من نومه أخذ يتقلب في فراشه إلى أن فتحت ابنته باب حجرته ودعته لتناول الإفطار معها ثم أعدت نفسها وغادرت المنزل وتركته في الصالون يقرأ جرائد الصباح. كان لديها في ذلك اليوم محاضرتين انتهت منهما ثم ذهبت للقاء صديقها وتناول الطعام معه في أحد المطاعم. رأته ينتظرها بالقرب من المكان.

كان الشاب ابن قرية ولد وعاش في المدينة وهو في نحو الثالثين تخرج من كلية الآداب قسم الصحافة ويعمل في واحدة من الصحف الرسمية ويراسل العديد من الصحف والمجلات وله باع طويل في هذا المجال وقد تعرف إليها حين قدمتها له إحدى الصديقات وهي زميلة لها. يومها وجدت هوى في نفسه. كما أدرك

أنها قد أعجبت به كان الشاب طويلاً متين البناء له شعر مسترسل وعينين ذكيتين وجبهة عريضة بارزة. لم يكن بمجمله جميلاً لكنه كان ذو شخصية قوية وجذابة. تأملها الشاب ملياً ثم مضيا معاً صامتين دون كلمة أنهت السيدة آمال بعض مالديهامن أعمال وأجلت البعض الآخر ثم كانت ضمن الموظفين الذي استقبلوا الضيوف ثم في النهاية حين غادروا أرادت أن تنهي عملاً ضرورياً خارج الوزارة أسرعت تنزل الدرجات المؤدية الى البهو الموصل إلى الباب الخارجي فزلت قدمها ووجدت نفسها أخيراً على بلاط البهو. تراكض الموظفون والبواب الذين رؤوا ما حدث نحوها وساعدوها على الوقوف وأشاروا عليها بالذهاب إلى المشفى لكنها شكرتهم وأكدت لهم أنها لا تحتاج لذلك فيما كانت تسوي ثيابها وتمسح حقيبتها وهي تحمد الله أنه لم يُكسر بها شيء. مضت إلى حيث سيارتها لكنها غيرت وجهة سيرها وطلبت من سائقها أن يمضي بها إلى البيت. حين نزلت كان كل شيء فيها يؤلمها لكنها رفضت مساعدته لها وصعدت الدرجات القليلة ببطء ثم فتحت الباب ودخلت سمعت صوت التلفاز يأتي خفيفاً فأدركت أن زوجها في الصالون تقدمت نحوه ومسحة من الألم تغطي وجهها. لكن ما رأته جعل الدهشة تعقل لسانها وتنسيها ما بها. كان زوجها يجلس على الأريكة الطويلة والخادمة مستلقية بقربه ورأسها في حجره. أحس الإثنان بها فهبت الفتاة مذعورة وأسرعت الى حجرتها فيما بقي الزوج جالساً وقد غاضت الدماء من وجهه واصطكت ساقاه. جن جنون الزوجة فاقتربت منه ونعتته بأقبح الصفات ثم أسرعت خلف الفتاة ولسوء حظ الأخيرة لم يكن لباب حجرتها قفل. حاولت السيدة فتحه لكن تلك كانت تدفعه بظهرها فازداد غضبها وأخذت تدفعه بكل قوتها حتى استطاعت أن تبعدها عنه فدخلت وأمسكتها من شعرها وألقتها أرضاً. في هذه الأثناء كان الزوج قد تبعها فرآها وهي تركلها بقدميها فيما الفتاة تبكي وتتلوى فأبعدها عنها وأخرجها من الغرفة بصعوبة وهي تقول:

ـ ستسافرين في الغد احزمي حقيبتك ثم وجهت الكلام إلى زوجها وهتفت غداً تحجز لها في أول طائرة وتجعلها تسافر ولكن لماذا أنت أنا من سيتولى ذلك اليوم. جلس الرجل وهو لا يكاد يجمع شتات نفسه. رآها فجأة تقترب من الهاتف فأسرع إليها وأمسك بيدها. قال بهدوء:

ـ دعي هذا الآن هناك شيء يجب أن أخبرك به أحست بقلبها يهوي قالت وهي تضع السماعة:

ـ ما الذي تريد قوله.

قال بعد صمت إنها حامل.

تملكها الدوار لدى سماعها ذلك. وضعت رأسها بين يديها جلست ظنت أنهاتحلم تساءلت وصوتها يرتجف:

ـ ممن منك. أومأ برأسه دون أن ينظر إليها

ـ منذ متى

ـ لها شهران

زفرت بغضب يا لك من دنيء خائن مخادع. تعاشرها من يدري ربما تجعل هذه القذرة تنام في سريري أيضاً أيها الحقير. تحاشى أن ينظر إليها أو يجيبها، أدارت عينيها حولها ثم ذهبت فأمسكت شعر الخادمة من جديد وسحبتها من حجرتها ودفعتها الى إحدى الحجرات ثم أقفلتها بالمفتاح ووضعته في صدرها وأخذت تدور في أرجاءالمنزل كلبوة وهي تشتم وتلعن. لم تتأخر ابنتها في ذلك اليوم لحسن الحظ. حين حضرت رأت أمها ترتدي كامل ثيابها فيما كان والدها منزو في غرفته فابتدرتها أمها على الفور

ـ لدي عمل يجب أن أقوم به الآن فانتبهي إلى هذه اللعينة المحبوسة هنا. دهشت الفتاة وعندما حاولت استيضاح الأمر اكتفت الأخرى بأن قالت وهي تأخذ منها مفاتيح السيارة عندما أعود انطلقت من فورها إلى مكان محدد تعرفه وهو

عيادة لأحد الأطباء وجدت أمامها أكثر من مريضة فانتظرت حتى سنحت لها الفرصة فقابلته بحجة الإستشارة قالت بعد أن حيته

ـ لقد سافر ولدي إلى بلد أجنبي للدراسة وتعرف هنا على فتاة بسيطة عاملة وتزوجها وحملت منه منذ شهرين وقد أحضرها معه الى هنا وأنا لا أريدها ولا أريد الطفل. أرجو أن تساعدني ويمكنك أن تحدد المبلغ الذي تريد. تأملها الرجل للحظات ثم قال:

ـ حسناً أحضريها صباح الغد فنقوم ببعض التحاليل لها ثم نجري العملية. تنفست المرأة بعد خروجها من العيادة ملىء رئتيها وعادت الى البيت. حين وصلت وجدت ابنتها لا تزال في ثياب الخروج تنتظرها.

لم تقل لها شيء فقط كانت تنظر إليها متسائلة. قالت:

ـ ألم يحدثك أبوك هزت الفتاة رأسها

ـ لا سألته لكن لم يخبرني.

ـ إذاً فاعلمي أن الخادمة على علاقة بأبيك طوال الوقت وهي حامل الآن ولها شهران.

وجمت الفتاة نظرت إلى أمها غير مصدقة. تابعت الأخرى:

ـ نعم هذا ما حدث لقد طلب مني الطبيب مبلغاً كبيراً لإسقاط الطفل ذلك العفريت قامت شيرين إلى حجرتها تمشي كالنائمة حين أصبحت وحدها مضت في بكاء عنيف انقضت الساعات طويلة قاسية وهي على هذه الحال لم يكن بها رغبة في رؤية أحد ويبدو أن أمها كانت كذلك فهي لم ترها تلك الليلة وكان الظلام والسكون يخيمان على البيت طول الوقت. في صباح اليوم التالي جعلت السيدة آمال خادمتها ترتدي ثيابها وتذهب معها الى العيادة. تأمل الطبيب في الفتاة الواقفة أمامه كانت على أبواب الثلاثين ـ سمراء نحيلة جافة العود ليس فيها أي مسحة من الجمال فانتابه الشك في أقوال السيدة وأدرك ما هنالك. لكن ما الذي يعنيه من ذلك إن مايهمه هو المال سألته:

ـ هل يمكنني أن أبقيها هنا بعد العملية حتى الليل كي أطمئن إلى سلامتها أومأ لها برأسه أن نعم. حين استيقظت شيرين في الصباح رأت أن والدتها قد نفذت ما قالته بالأمس فاقتربت من حجرة والديها لكنها عادت فابتعدت. لم يكن بهارغبة برؤية والدها كانت مريضة. تعسه. حزينة. آه كم أنا بحاجة لصدر حنون يضمني.

لكن إن أمي أيضاً في أزمة كان الله في عونها. انتابها الرعب حين تذكرت ما يحدث الآن في العيادة فسالت دموعها لكنها عادت فدخلت الى المطبخ وأعدت الإفطار ثم ذهبت لإيقاظ أبيها إلا أنه بقي نائماً ورفض دعوتها للطعام رفضاً قاطعاً فعادت بقلب كسير فأكلت بعض لقيمات وعادت واستلقت على سريرها. هناك أشياء تهمها هي أيضاً عليها أن تفكر بها. لم تخرج في ذلك اليوم من البيت حين اتصل بها صديقهارشاد ادعت أنها مريضة ولا يمكنها مغادرة المنزل. بقيت مع أفكارها ومخاوفها حتى عادت أمها مع الخادمة فأدخلتها الى الحجرة. أحضرت فراشاً وبعض الطعام ألقته إليها ثم اقفلت الباب.

سألت شيرين بصوت خافت ـ ما الذي حدث

ـ لقد انتهى الأمر

ـ لكن ماذا فعلت بشأن عملك

ـ لقد اتصلت بهم وقلت أني متعبة بسبب سقوطي. آه أنت لاتعلمين أني وقعت. آه يا ابنتي إن المصائب لا تأتي فرادى كم شعرت بالخجل أمام الموظفين. حين رأت ازدياد الكآبة في وجه ابنتها قالت ـ من حسن الحظ أني كنت أرتدي ملابس محتشمة. صمتت للحظات ثم تابعت لقد طلبت الى شاب عندنا في الوزارة أن يأتي غداً ويأخذ أوراق الخادمة وينهي جميع الإجراءات لأنها ترغب

بالسفر لأجل والدها المريض. كما أني أخذت إجازة لعدة أيام ماذا أفعل هذا ما أراده أباك بتصرفاته اللا مسؤولة ـ مارأيك أفكر بإخبار أخيك بما حدث

ـ لا يا ماما أرجوك لا تفعلي لينتهي الموضوع في أضيق الحدود

في اليوم التالي بقيت شيرين في المنزل تحوم حول والدتها المتعبة الأعصاب حيث كانت تروح وتجيء بين الغرف دون أن تقوم بعمل محدد فيما والدها معتكف في حجرته عند المساء أجرت اتصالاً هاتفياً وأيضاً اتصال آخر ثم جمعت بعض الحلي التي لديهاوضعتها في حقيبتها واستأذنت أمها في الغياب لبعض الوقت. اتجهت الى صائغ تعرفه وطلبت بيعهم بحجة أنها ترغب في شراء نماذج أخرى فيما بعد.

فقدم لها مبلغاً جيداً أخذته ومضت الى حيث ينتظرها صديقها. اختارا مكاناً خاصاً سبق لهما أن زاراه من قبل. كان المكان وكراً حقيقياً حيث الأضواء خافتة لا يرى أحدهما الآخر إلا بصعوبة مما يسمح للعشاق أن يتصرفوا كما يحلو لهم. كان الرواد كثيرون ويبدون كالأشباح. اختارا مائدة قريبة من الباب. قال بعد أن استقر بهما المقام

ـ إن القلق يكاد يقتلني وأناواقف هكذا لا أستطيع تقديم أية مساعدة ومما يزيد في عذابي هو المعاناة التي تعيشين فيها وإحساسك باليأس. قلت لك أكثر من مرة أنني على استعداد لخطبتك في الحال لكنك تعارضين الى متى.

قالت بصوتها الناعم لن يقبلوا بك فليس لديك منزل مناسب ودخلك قليل، حتى لو وافقوا فقد فات الوقت الآن. رأته يستدير جانباً ثم ينحني الى أسفل وأشعل سيجارتين قدم واحدة لها. فيما هي تنظر إليه كان يفعل ذلك دائماً حتى لا يرى أحد وجهها على ضوء ولاعته. قال إذاً ما الذي سنفعله

ـ ستأتي غداً صباحاً معي فننهي هذا الأمر كما سبق واقترحت عليك في الماضي ثم بعد ذلك نرتب أمور حياتنا كما يجب.

أمسك بيدها ـ أرجوك يا شيرين

ـ لا أستطيع لقد فات الوقت. فكرت شيرين كيف أنها استطاعت من خلال هذه المأساة التي حلت بأسرتها أن تجد حلاً لمشكلتها.

حين استيقظت في الصباح وجدت أمها تجلس قرب النافذة تنظر في الفضاء أمامها وهي ساهمة اقتربت منها وقبلتها تأملتها هذه كانت شاحبة فربتت على خدها

ـ أرى أنك قد أعددت نفسك للذهاب هل ستتأخرين اليوم

ـ نعم يا ماما أنا جد آسفة إذ سأتأخر عليك ونحن في هذا الظرف لكن كل محاضراتي اليوم مهمة.

ـ لا بأس إني أتدبر أموري ولكن تناولي شيئاً قبل ذهابك

ـ لا أشعر بأية رغبة ربما إذا وجدت بعض الفراغ أفعل ذلك. عادت إلى حجرتها وضعت بعض الأحمر فوق شفتيها ثم دعكت وجنتيها حتى تدب فيهما الحياة تناولت حقيبتها وخرجت وجدت صديقها ينتظرها حيث اتفقا بالأمس صعد الى جوارها. حاول أن يثنيها عن عزمها لكنها أصرت. جالا في السيارة لبعض الوقت ثم عادا الى وجهتهما نزلا أمام العيادة التي أتت إليها أمها قبل يومين. دخلت والخوف يملأ قلبها كان الوقت لا زال مبكراً إلا أنها لمحت الطبيب في الداخل. وجدت نفسها تتخطى الممرضة الى حجرته يتبعها صديقها

ـ لقد اتصلت بك بالأمس قالت وهي تمد يدها الى حقيبتها وتخرج رزمتين كبيرتين قدمتهما له ثم أكملت حديثها.

لأول مرة سمعها رشاد وهي تتكلم بكامل صوتها

ـ أرجوك يا دكتور أنا بحاجة لإجراء عملية إجهاض عاجلة وهذا خطيبي وأشارت إلى صديقها.

قصتان

* أشلاء القصة المذبوحة
* تنازلات

بقلم:
هيفاء رزق

أذكر أنني في هذا اليوم المميز كسرتُ طوقَ الرقابة والملل والكسل وتابعت كتابة قصتي لكنني أخذت أتذكر الحادثة التي وقفت عندها في المرة السابقة أي منذ خمس سنوات لقد بدت ذاكرتي متلبدة بالهموم والتراكمات اليومية أجل تذكرت حينما زغردت أم رزين بمناسبة تخرج ابنها ونيله الشهادة الجامعية لقد كانت في أوج فرحها لان جهودها الكثيرة التي بذلتها بعد وفاة زوجها في تربية الأولاد وتوجيهم لم تذهب سدى.

تبا للمشقات والاتعاب التي قطعت علي متابعة زغاريد أم رزين. آخر زغرودة أطلقتها لم تصل أسماعي بكاملها لأن رنين الهاتف المزعج فاجأني ليقول: أخوك في المستشفى بسبب حادثة سيارة لا تخف الأمور شبه عادية.. هرولت بسرعة.. المستشفى غير بعيدة... دخلت جناح الإسعاف رأيت أخي المقمط بالأقمشُة.. أنينه نخر اسماعي حتى كدت أفقد وعيي لا تخف أخوك يلزمه سبعة أيام في المستشفى وبعدها تكون الأمور عادية هكذا فاجأني الطبيب متابعا يلزمه بضعة أيام في العناية المشددة عناية مشددة وما درجة إصابته؟ الأمر ليس معقدا كسر في الحوض والذراع وتشوهات قليلة في الوجه صعدت مع أخي المسكين الى جناح العناية المشددة وبقيت معه بضعة أيام وكانت فاتورة الحساب ثلاثين ألف ليرة سورية انتقلنا خلالها الى جناح آخر حيث أمضى أخي بضعة أيام اخرى جرى حسابها بعشرين ألف ليرة سورية وبعدها سمح لنا بمغادرة المستشفى بعد ذهابنا الى البيت استمرت صرخات أخي، واستمر

أنينه فالأوجاع لم تنته مما جعلنا ننتقل الى مستشفى آخر جرت المداواة فيه على نسق المستشفى السابقة مع فاتورة حساب متفوقه في سعرها ومع ذلك فالأوجاع استمرت والتشوهات ما زالت تخط أحرفها في وجه أخي الجميل يا للكارثة كدت أخسر أخي.. المهم استعادة وجه أخي الجميل وصحته الجيدة قررت دخول مستشفى اخرى حيث أجريت عمليات اخري في الحوض وعلميات تجميلية استدنا بسببها مبلغاً كبيراً لم نزل تعمل على تسديده حتى الآن تباً لهذه الأحداث التي ذبحت قصتي أريد أن أتابع زغاريد أم رزين التي لم تنته بعد فاجأني صوتها المبحوح في هذا الصباح وهي تردد لاهثة رزين يريد أن يترك عمله ويسافر الى بلاد بره ليعمل في شركة كبيرة عمله سيؤمن له بيتا وسيارة ومدخرات عملت كل شيء في سبيله ومع ذلك يفاجئني بالسفر وترك الوطن - حسنا تابعي الزغاريد يا أم رزين كما كنت تفعلين من قبل فابنك اختار طريقا يستطيع فيه تأمين نفسه زغردي يا أم رزين كما كنت تفعلين من قبل لأنني لا أريد للأحزان أن تعود مرة أخرى فتعرقل كتابة القصة الزغاريد تثير حميتي وتضاعف شهيتي للكتابة. كرم الله ذكرى آبائنا الذين ترعرع شعرهم العذب في خضم زغاريد الانتصارات وأفراحها عودي الى الفرح يا أم رزين ولا تندبي حظك بسبب خيباتك المتتالية انني أريد قبسة من الفرح وزغاريد النجاح كي أنهي قصتي التي باتت أشلاء منثورة هنا وهناك آه لقد عاد الهاتف يزعق مرة اخرى أقصد يرن لكن رنينه يصل إلى أذني كنعيب الغراب بت اكره هذه الالة واتوجس شراً منها هل الخير مشؤوم أيضاً كنت أتكلم مع نفسي بصوت مرتفع وصل أسماع رزين الذي هتف إلينا من المهجر ليقول: ماذا عن أمي هل هي بخير أريد أن أسمع صوت أمي فالأصوات الغريبة هنا تسبب لي الاكتئاب سافرت كي اشتري فرحا لا بأس أعطيني أمي رزين هل أنت بخير نعم يا أمي فخيالك دائماً في قلبي اشتقت لك كثيراً تعال بأقصى سرعة الى الوطن فكل شيء في البيت يحتاج اليك، لكنني لم أستطيع أن أشتري الفرح مازلت ألعق طعم الخيبة أريد أنهار الفرح أن تصب في بلادي لكنني لم اعثر الا على اللون الرمادي القاتم.

- الفرح لا يستورد إنما يتدفق من داخلنا من أنفسنا حينما نزغرد في عرس في نصر.

- نحن بحاجة الى أعراس وانتصارات الهزائم والإحباطات تكاد تقتلع جذور الفرح فينا.

لا بد أن نصنع انتصاراً كبيراً كي يجتث حزننا المدفون.. لقد تلطخ وجداننا بالهزائم والانكسارات هل تظنين يا أمي أننا نقوى على تخطي هذا الزمن الصعب هل تظنين أننا نستعيد كبريائنا المطعون لوننا لم أعد أدري ما هو لقد اختلط بألوان كثيرة ففقد أصالته

- يمكن يا بني لو تكاتفنا سوية وعملنا في وطننا، تعال يا بني كي نستعيد أفراحنا ونزغرد من جديد.

أعاد الي كلام أم رزين شيئا من الهدوء فعدت الى قصتي أحاول تنظيمها وللملمة أشلائها فاذا بي أفاجأ بأخي يعود وقد استعاد وجهه إشراقته الجميلة كي يبتسم قائلاً:

- لقد استعدت صحتي وحيويتي لكن على أن أسدد مبلغ /١٠٠٠٠٠/ ليرة سورية علي اقساط شهرية تدفع من الراتب الشهري الذي دفعت نصفه ثمنا لبذة عمل.

تنازلات

حاولت جاهداً أن أبدد كوم الذكريات الذي انداح مالئاً أمداء ذهني لكنني لم أستطيع كان الكم الهائل يتدافع بسرعة كقطع الغيوم التي تملأ رحاب السماء سمعت صوت أبي يؤنبني:

ـ يا لك من غبي تتنازل عن حقوقك وأحلامك بسرعة

ـ لكن الاقدار شاءت ذلك ياأبي حنان فتاة جميلة خطبها كثيرون ممن يملكون الأموال والأطيان.

ـ لكنها أعطتك فرصة كي تثبت نفسك وجدارتك وأنت الذي تنازلت عنها وأدرت ظهرك يالك من غبي لقد ذرفت حنان الدموع الكثيرة لكنك تراخيت وتركت حلم العمر يضيع بمعنى أنك تنازلت عن حلمك الذهبي والتنازل وصمة عار في تاريخك تقود إلى تنازل آخر انني بت أخاف عليك من العقبات وسلوك طريق الانحدار والتقهقر.

تنازل تقهقر هزيمة يا لهذه الكلمات.. ذات الوقع المرعب كدت أقع أرضاً من هولها بل خيل الي أنني أقف في مكان يتحرك بي الى الوراء بسرعة ويلقيني في أعماق الجحيم خيل إلي أنني أتضاءل شيئاً فشيئاً حتى أتحول الى كرة صغيرة يمسكها طفل صغير يلعب بها قليلا ثم يمزقها ويلقيها في سلة المهملات أمر فظيع حقاً أن تكون بدايتي متخاذلة يكاد رأسي ينفجر حين استعيد كلام أبي لا مرة أخرى أريد أن أنام كي أستعيد توازني وأتخلص من هذا الارتجاف الفظيع الذي اعتراني.

ـ ما هذاالعرق الغزير الذي يتساقط من جبينك، ووجهك أصفر بلون الليمون هكذا سألته أمه التي بدت خائفة.

ـ لا ليس هناك شيء ما لكني خسرت معركة كبيرة جعلتني منهزماً متقهقرا ضعيفا.

ـ خسرت معركة مع من؟ هل انت تقود حربا ضد الأعداء.

ـ لا لكن خسارتي هذه قد تؤدي بي الى الهزيمة أمام الأعداء.

الشيء المؤلم أني بدأت معاركي بالخسائر.

ـ لا أفهم شيئاً أنت تهذي وتتفوه بكلام غريب.

خسائر هزائم انكسارات. ما معنى كلام أبيه هل أراد تأنيبه فعلا أم أراد أن يشرح له موقفا؟ ما كاد ينام البارحة حتى رأى حلما عجيبا رأى نفسه يتعارك بالأيدي مع جاره سعيد الذي حاول أن يستولي علي حديقة المنزل ويزرع فيها نباتات جديدة كانت المشاحنة عنيفة أبدى فيها قوة كبيرة ومقاومة نادرة غادر فيها سعيد يجر أذيال الخيبة رغم ذلك مازال كلام والده يرن في أذنه مازال توتره يزداد وقلبه يخفق بشدة حين غادر المنزل عله يجد مبدداً لهمومه بالسير في شوارع المدينة اعتراه زوغان أفقده الرؤية الحقيقية، كان يري الناس منكسي الرؤوس من ثقل التنازلات والهزائم أتراهم تنازلوا عن حبيباتهم؟ اتراهم تنازلوا عن حدائقهم وأغلى حوائجهم، تابع السير فكاد يرى موكبا آخر واقفا لا يستطيع متابعة الخطى لكز أحدهم على رأسه فوقع مغشيا عليه ثم نبه الاخر فتراجع متقهقرا الي الوراء يا لهذه الأفواج المتكسرة بين منكسي الرأس ومغشي عليه ومتقهقر متراجع كاد يقع أرضا لولا انه لم يستعد الحديقة المسروقة لكن حنان أين ذهبت، أفاق من ذهوله يستعيد كلام أبيه يا لك من غبي تتنازل عن حقوقك فكان كمن مسه تيار صاعق ازداد اصفراره وشحوبه وخفقان قلبه فعاد سريعا الى البيت يحمل بندقية أبيه ويقف شامخاً قويا كي لا يسقط في حمأة التنازلات.